الفاطميون

بين صحة النسب وتزوير التاريخ



محمد علي القطب

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الفاطميون

بين صحة النسب وتزوير التاريخ

محمد علي القطب



الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - 2002 م



المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية   المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ ١١ - تلفاكس ٦٥٥٠١٥ ٠٠٩٦١١
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٧٢٠٣١٧ ٠٠٩٦١٧
e-mail: alassrya@terra.net.lb

ISBN 9953 - 432-84-8

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونشكره، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير؛ ونشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمة، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يضل عنها إلا زائغ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه، إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد كنت قرأت بحثًا للعلامة محب الدين الخطيب عليه رحمة الله فى مجلة الأزهر[١] بعنوان:

من هم العبيديون؟ ولماذا أحرقوا مدينة الفسطاط؟ يقول فيه:

---

(١) غرة جمادى الأولى ١٣٧٩هـ الموافق السادس من يناير كانون الثانى ١٩٥٤م. الجزء الخامس المجلد الخامس والعشرون.

كتب إلينا السيد/ محمود محمد عيد ـ وكيل إدارة التوريدات والمخازن بوزارة الشؤون الاجتماعية يقول :

قرأت مقالكم الأخير فى جزء ربيع الآخر من مجلة الأزهر بعنوان : يتيم من مصر العتيقة ، وقد جاءت فى ثناياه كلمات عابرة عن العبيديين ، وتعمدهم إحراق مدينة الفسطاط ، فمن هم العبيديون وما هى حقيقة هذا الحريق؟

ولما كان هذا الموضوع قد كثر فيه القول ، من ألف سنة إلى الآن ، ثم جدّت فيه مراجع ونصوص وتحقيقات لم تكن معروفة قبل عصرنا هذا ، رأينا من المفيد أن نجيب على سؤال السائل بما يأتى ، موجزين فيه القول بقدر ما يحتمله المقام .

ثم يشرع العلامة رحمه الله فى سرد خلاصة للإجابة عن التساؤل ، تجاوزت العشرين صفحة .

ولما كانت الفترة الزمنية التى حكم فيها العبيديون مصر والشام والحجاز تمتد إلى قرنين من الزمان تقريبًا ، ٣٥٨ ـ ٥٦٢ هـ؛ فقد أحدثوا فى البلاد ، وعلى العباد ، وفى الدين ، ما لم ينزل به الله سلطانًا ، وتركوا وراءهم أسوأ الأثر ، وفصلاً تاريخيًا أشد سوادًا وظلامًا من الليل الحالك .

وعلى الرغم من ذلك فما يزال عامة الكُتاب والأدباء ، وما تزال مناهج التدريس فى أكثر البلاد العربية ، تذكر عهدهم بالفاطميين ،

ولا نرى مسوغًا لهذا الضلال والإضلال، بالنسب الكاذب زورًا وبهتانًا، وإن ادعاه أصحابه افتراء على حين غفلة .

ولقد رأيت أن من الواجب الدينى والحقيقة العلمية أن نضع الأمور فى نصابها، ونقوم الاعوجاج الذى طغى وبغى، وحاد بالعقول والنفوس عن جادة الصواب، كى لا تظل مصبوغة بهذه الفرية .

إن بيان الحقيقة الناصعة من خلال الوثائق التاريخية، ليس رجمًا بالغيب، ولا تطاولاً، بل إنصافًا وعدلاً، لمن كان عنده مسكة من ضمير وعقل وبصيرة .

ولو أن العبيديين صدقوا فيما امتروا، وانتسبوا لغير فاطمة البتول رضى الله عنها لكان الأمر سهلاً وعاديًا، ولكنهم ادعوا النسب إلى قدس الأقداس، إلى الدوحة النبوية الشريفة، وحكموا من وراء ذلك، وغيروا وبدلوا، وأرهصوا فى العقيدة خاصة إرهاصات هى أقرب إلى الكفر، فكيف يجوز لنا أن نراوح فى مكاننا، ونتقبل هذا الادعاءالباطل، ونستمر على تسميتهم بالفاطميين؟!

لقد آن الأوان، وقد آن من قبل، أن نقلع عن هذه المغالطة، ونسمى الأشياء بأسمائها، ونقول: عبيديون لا فاطميون، صدقًا وحقًا، رحمة بعقولنا وتاريخنا وأجيالنا حاضراً ومستقبلاً .

أسأل الله تعالى أن يوفقنى إلى تمام البحث واستكماله، وأن ينفعنى به، ويجعله فى ميزان حسناتى يوم القيامة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة شعبان ١٤١٩.

الموافق نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٩٨.

بين يدى البحث

الطالبيون بين عهدين: الأموى والعباسى

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى العبقريات(١):

بويع لعلى رضى الله عنه بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية فى تاريخ الإسلام، هى مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه فى شيخوخته الواهنة، بعد أن حصروه بين جدران داره، وكاد يقتله الظمأ، لو أمهله القتلةُ بضعة أيام.

وأفجع ما كان فى هذه الحادثة أنها بلاء لا يدفع، وقضاء لا حيلة لأحد فى اتقائه، لأن المسؤولين عنه كثيرون متفرقون فى كل جانب يناصره أو يعاديه، فإذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء، وإذا بطل الشر الذى فيه اختيار، لم يبطل الشر الذى لا اختيار فيه، وربما كان حسن النية وسوء النية هما صنوين متساويين، فمن الأعمال المؤسفة التى عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من «عثمان» نفسه، أو لعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعة، وليست هى فى تعجيلها ولا فى سوء بعثتها بأهون من أعمال الأعداء.

كان عليه - أى على علىّ - رضى الله عنه أن يكبح الفرس عن

---

(١) ص: ٨٨.

جماحها، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرس، كلما حيل بينها وبين الانطلاق.

وقد تحدث الإمام مرة فى أمر القود من قتلة عثمان، فإذا الجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح، ويجهرون بأنهم كلهم قتلة عثمان، فمن شاء القود فليأخذ منهم أجمعين.. ا.هـ.

لقد كانت المشكلة الكبرى أن المتلوثين بمؤامرة قتل عثمان رضى الله عنه، والمرتكبين لها، لم يكونوا مشخصين تشخيصًا تامًا، أو تحديدًا عينيا، يؤخذون بالمشاهدة، أو الشهادة الشرعية التى يسوغ بها القصاص.

حتى إن زوجة عثمان نائلة بنت الفرافصة نفسها لم تستطع أن تعينهم بالتحديد. فكان على رضى الله عنه يقول لمن طلب منه إقامة الحدود:

إنى لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم بينكم يسوقونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعًا لقدرة على شىء مما تريدون؟

ويقول صاحب الإصابة(١):

كان رأى على أنهم يدخلون فى الطاعة أولاً ثم يقوم ولىُّ دم

(١) ج: ٢، ص: ٥٠٨.

عثمان رضى الله عنه فيدعى به عنده، ثم يعمل معه ما يوجبه حكم الشريعة المطهرة.

أما من خالفه فى هذا الرأى، وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان فيردون على ذلك بقولهم: تَتَبَّعْهُم واقتلهم.

يقول الأستاذ العقاد:

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له، والقصاص من العادين عليه لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا، يؤيدون ولى الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف.

وانتهى الأمر بين الطرفين إلى نزاع بالسلاح، وقتال بين المسلمين - أول قتال - انتهى إلى معركة الجمل، واستشهاد قائديها: الزبير بن العوام ابن عمة على رضى الله عنهما على يد ابن جرموز الذى قتله غدراً، بعد أن غادر ميدان القتال منصرفًا عنه، نائيا بنفسه، وأيضًا طلحة بن عبيد الله، طلحة الخير الذى بشره النبى ﷺ بالجنة، وقتل قبيل ابتداء القتال بسهم غَرْب، لم يعرف مصدره، كان السبب فى التحام الطرفين:

وعادت عائشة رضى الله عنها إلى المدينة وقد انهزم من معها، ورجحت كفة على ومن معه.

وخلع معاوية بن أبى سفيان - والى الشام - طاعة ولى الأمر

علي بن أبي طالب مستندا إلى المطالبة بالاقتصاص من قتلة عثمان.

وأدى ذلك إلى المواجهة يوم صفين بين علي ومعاوية، ثم كانت حيلة عمرو بن العاص برفع المصاحف على رؤوس الرماح، وتحكيم كتاب الله تعالى فيما شجر بينهم من خلاف، فتوقف أكثر جند علي عن القتال، وأكره عليّ على قبول التحكيم.

ثم كانت خديعة أخرى من عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري الطرف الآخر في التحكيم، وانتهى الأمر إلى عودة علي إلى الكوفة العاصمة الجديدة لدولة الإسلام، وظهور معاوية بن أبي سفيان خليفة آخر في الشام؛ وقد اتخذ من دمشق عاصمة جديدة.

ودمغ هذا الخلاف بالدم، إذا ظهرت طائفة الخوارج، وحمَّلت العناصر الثلاثة: عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص إثم الخلاف بين المسلمين، ودبر رؤوسها مؤامرة الخلاص من الثلاثة.

وفي ليلة السابع عشر من رمضان سنة أربعين للهجرة، استشهد عليّ كرم الله وجهه على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم؛ ونجا من الموت معاوية وعمرو! إذ أصيب معاوية إصابة طفيفة من الذي جاء لقتله، وقُتل خارجة بن حذافة، صاحب شرطة عمرو

بدلاً منه، لأنه لم يخرج تلك الليلة لصلاة الفجر، فبعث خارجة بدلاً منه.

وتلاحقت الفتن من ثم يردف بعضها بعضًا. . . !

وكان استشهاد الحسين بن على - رضى الله عنهما - فى كربلاء أيام خلافة يزيد بن معاوية فاجعة الفواجع، وثالثة الأثافى، والاعتداء الصارخ على بيت النبوة، وزهوق روح أحد السبطين ظلمًا وعدوانًا.

واتسعت دائرة الخلاف بين بعض الطالبيين وبنى أمية، وكان بعض آخر من الطالبيين على صلة ومودة مع حكام بنى أمية، يأتونهم راغبين، فيجيزونهم بالعطايا.

لكن الرأس الشريفة التى احتزت فى كربلاء رأس الحسين ابن على رضى الله عنهما لعبت دورًا رئيسيًا فى النقمة على الأمويين.

وكان الهاشميون فى جبهة واحدة، طالبيين وعباسيين لهم قواعدهم وأنصارهم ومؤيدوهم، ولكن المعارضة كانت تتسم فى أكثر الأحيان بالطابع السرى ومن ثم نشأت لهم تكتلات كثيرة، فى كل قطر من أقطار الدولة الفتية، تشتد حينًا وتخبو أحيانًا، تبعًا للظروف السياسية والاجتماعية، وتداعيات الأحداث. وكان أكثرها نشاطًا تلك التى كانت تتواجد ما بين الحجاز والعراق وبلاد فارس.

ولقد كان الرمز للقيادة الهاشمية يتمثل عند العامة والخاصة فى الفرع الطالبى، من على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب إلى ولده محمد إلى ابنه جعفر رضى الله عنهم أجمعين.

ولقد عاصر جعفر بن محمد رضى الله عنهما نهاية السلطان الأموى، إذ كانت وفاته رحمه الله سنة ١٤٨هـ، ومن بعده افترق الناس من المؤيدين إلى فرقتين، إحداهما اتخذت ابنهُ إسماعيل رمزاً للإمامة، وأخرى جعلت من موسى الكاظم إمامًا وقائداً.

وبقدر ما كانت الفاجعة باستشهاد على كرم الله وجهه، ومن بعده بولده السبط الحسين بن على رضى الله عنهما؛ كانت ردة الفعل عنيفة، فشطحت بالأتباع والأنصار إلى المغالاة، ليس فى الموقف السياسى وحده، بل تعدته إلى العقيدة أحيانًا، وأصول الدين وفروعه، فتزيدت كثيراً، وكثيراً جداً.

بدءًا من ابن سبأ اليهودى(١) الذى ادعى الألوهية لعلى كرم الله وجهه فى حياته، إلى الكثيرين ممن أتوا بعده، وكان أكثرهم من العناصر التى لا تريد للإسلام خيراً، ولا لأهله، يهوداً وفرسًا وتركًا وغيرهم، أولئك الذين دخلوا فى الدين لتقويضه من الداخل، وعلى الرغم من أن الأئمة رضى الله عنهم

---

(١) أهدر على رضى الله عنه دم هذا اليهودى الفاجر، والذى عرف بابن السوداء.

حاربوهم ودحضوا افتراءاتهم، إلا أنهم كانوا يجدون لأقوالهم وإرهاصاتهم آذانًا صاغية، وقلوبًا فارغة تتلقف أكاذيبهم وتتجاوب معها.

وقبيل منتصف القرن الثانى الهجرى استطاع أبو العباس السفاح محمد بن على بن عبد الله بن عباس أن يخطف الخطفة الكُبرى، ويقضى على الدولة الإسلامية الأموية، ويستولى على السلطان.

فقد كان عاملاً طوال عقود من السنين، فى سرية وكتمان، على حشد الأنصار وتنظيمهم، وتعبئتهم وتحضيرهم للجولة الحاسمة مع الأمويين؛ ما بين العراق وفارس، من غير أن يثير أدنى شك لدى الطالبيين أبناء العمومة فى الاستئثار بالسلطة؛ فلما تم ذلك عام ١٣٢هـ، قلب للطالبيين ظهر المجن، وأعلنها عباسية محضة.

ولقد زاد ذلك فى جنوح الطالبيين وأنصارهم إلى مزيد من المعاناة، ومزيد من التشرذم والتمزق، وبدأ ظهور الفرق المختلفة المتشيِّعة.

كما اشتدت المغالاة والتطرف، ويزيد من أوار اشتعال الفتنة فى الدين أرباب الدسائس والماكرون أولئك الذين نقلوا من فارس والهند والإغريق (اليونان) فلسفات وأفكارًا حاولوا إلباسها للإسلام.

يقول أستاذنا الندوى[١]:

وأخيراً نشطت الطبيعة التى كانت من رواسب الجاهلية القديمة، والديانات البائدة، والحضارات والمجتمعات والفلسفات التى لم تستفد من النبوات ولم تقم على تعاليمها، فى اليونان وإيران والهند والصين، وهى طبيعة تقديس أفراد الأسرة المالكة الحاكمة، أو الروحية الباطنية القائمة بالقيادة الدينية بالزمن الماضى، التى تسلسل فيها رجال عرفوا بالرياضات الشاقة والمجاهدات العظيمة، وشىء من التسامى على المستوى العام، ودانوا بعصمة البابوات وقدرتهم على نسخ أحكام الشريعة، والتشريع المطلق.

هذه الترهات والأباطيل الفكرية، سرت إلى عقول الكثيرين، من الطالبيين العلويين عامة وخاصة، ثم أفرخت من بعد فرقًا شتى، منهم العبيديون.

---

(١) كتاب المرتضى: دار القلم، دمشق ص ٢٤٤.

العبيديون

العبيديون هم سلالة عبيد الله المهدى، وعبيد الله هذا عراقى الأصل، ولد فى الكوفة سنة ستين ومائتين ٢٦٠ للهجرة؛ وكان من حين ولادته إلى أن استقر مختبئًا فى سلمية يعرف باسمه الحقيقى، وكذلك نسبه: سعيد بن أحمد بن حسين بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح.

وتقع سلمية فى الشمال السورى إلى الشمال الشرقى من «حمص»، وهى بؤرة طائفة الإسماعيلية؛ وفى تلك المنطقة بين سلمية ومصياف مات الحفيد الرابع لإسماعيل بن جعفر الصادق واسمه على بن الحسين بن أحمد بن محمد بن إسماعيل.

وطائفة الإسماعيلية إحدى الفرق التى انشقت عن الشيعة، وهى من الفرق الباطنية[١]، ولا تزال إلى يومنا هذا، لهم إمامهم آغاخان؛ ولهم كتبهم وطقوسهم وتأويلاتهم؛ وأشهر كتبهم: نورمبين ـ حبل الله المتين باللغة الأوردية[٢]، تأليف على محمد جنارا[٣]، وهو مطبوع فى بومباى الهند ويقع فى حوالى ٦٧٠

---

(١) للتعرف على الباطنية وفساد معتقدها وسلوكها يراجع كتاب فضائح الباطنية للإمام الغزالى.

(٢) اللغة الأوردية: لغة أهل باكستان.

(٣) أحد أتباع أغاخان.

صفحة، يتضمن عدة صور ، بعضها لمزاراتهم السرية فى سلمية ومصياف.

وبعد وفاة الحفيد الرابع لإسماعيل بن جعفر وضع دعاة الباطنية خطة لدعوتهم، قرروا فيها نقل الإمامة من ذرية إسماعيل ابن جعفر إلى ابنهم بالنكاح الروحى: سعيد بن أحمد بن حسين بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وتغيير اسمه الحقيقى إلى عبيد الله المهدى.

ومن ثم أرادوا التوسع فى دعوتهم بعيداً عن رقابة العباسيين، فأرسلوا إلى اليمن داعية لهم اسمه حسن بن فرح بن حوشب بن زاذان الكوفى، الذى اشتهر بلقب منصور اليمن، ذكره الهمذانى مؤلف كتابى: الإكليل وصفة جزيرة العرب(١).

وأرسلوا داعية آخر إلى الشمال الإفريقى اسمه الحسين بن أحمد، اشتهر بلقب «أبى عبد الله الشيعى».

هذا الأخير استطاع أن ينجح فى التبشير بمعتقدهم وآرائهم، ويستقطب حوله الأنصار والمؤيدين، حيث فشل الأول فى اليمن، التى كانت قد تأثرت بأفكار زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، الذى خرج أيام هشام بن عبد الملك، واستشهد.

---

(١) الإكليل: ١٨٢ ـ ١٨٥.

وعندما اطمأنوا إلى نجاح دعوتهم فى المغرب ، انتقل القداح عبيد الله المهدى إلى هناك ليباشر استكمال الغاية والهدف ، واتخاذ القاعدة والمنطلق .

كانت حكومة المغرب فى يد بنى الأغلب ؛ فلما أحسوا باستشراء الدعوة ، وانتشارها ، وخطورتها قبضوا على عبيد الله المهدى القداح وأودعوه السجن ، آملين من وراء ذلك وأد الفتنة ؛ لكن أبا عبد الله الشيعى والحسين بن أحمد ، والذى كان طليقًا ، جمع الجموع من المؤيدين والأنصار ، وثار بهم على الدولة ، واستطاع استخراج سيده من السجن .

ورأى القداح المهدى حوله قوة عظمى واستبسالاً فى الثورة ، وخشى فى الوقت نفسه على سلطانه وإمامته من أبى عبد الله الشيعى من أن ينازعه الأمر ، فلفق له تهمة ، ثم قتله .

القضاء على بنى الأغلب

وعندما أصبح الأمر فى القيروان والبلاد التونسية عامة بيد القداح المهدى احتل مدينة رقادة، وطرد عنها بنى الأغلب، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة سبعة وتسعين ومائتين ٢٩٧ هـ، واتخذها مقراً لسلطانه وحكمه.

ولقد مدحه أحد أتباعه فكان مما قال:

حل برقادة المسيح ‏ ‏ ‏ حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو البرايا ‏ ‏ ‏ وكل شيء سواه ريح

ويتجلى واضحًا من خلال كلمة: حل، التى رددها الشاعر الإسماعيلى ثلاث مرات فى بيتين من الشعر يمدح بهما إمامه، عقيدتهم فى الحلول ونزعتهم الضالة المضلة.

ومن ثم أبقَوا مدينة المهدية على اسم عبيد الله المهدى وأخذ نجم سلطانهم يعلو، وقوتهم تشتد، واتسع نفوذهم، واستمر المهدى فى سدة الحكم والإمامة المزعومة إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة (٣٢٢) هـ؛ وخلف من بعده على هذه الدعوة ابنه القائم نزار، حتى سنة أربعة وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٤)هـ؛ وتولى بعد القائم ولده المنصور إسماعيل حتى سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة (٣٤١) هـ.

كـانت أنظار العـبـيديين وتطلعـاتهم تتـجـه نحـو مصـر يعـدّون أنفسـهم ويعِـدونها بالاستيلاء عليـهـا، واتخـاذها مـركـزًا لهـم، وسلخها من أيدى العباسيين، وتحويلها إلى أيديهم.

فـ «مصر» كـانت وما تزال ذات أهميـة كبرى بمالهـا من موقع ومكانة، وبما فيها من طاقات وإمكانات هائلة، بشرية وطبيعية.

فلمـا كانت ولاية المعـز معد بن المنصور إسـماعيل (٣١٩ـ ٣٦٥) هـ؛ بعث بجيش كثيف على قيادته مولاه جوهر الصقلى، فاستولى على مصر سلمًا؛ وأرسل إلى سيده المعز يبشره بالفتح، وإقـامـة الدعـوة بهـا، ويطلب إليـه القـدوم، وكـان ذلك سنة تسع وخمسين وثلاثمائة (٣٥٩) هـ.

ففرح المعز بذلك واستبشر، وأخذ يعد العدة للانتقال إلى مصر.

وقد قال شاعره محمد بن هانئ قصيدة مطلعها:

يقول بنو العبـاس قد فتحت مصـر

فقل لبنى العبـاس قد قضـى الأمـر

وفى شهر شوال سنة إحدى وستين وثلاثمائة (٣٦١) هـ، خرج المعـز بأهله وحـاشـيتـه وجنوده من بلاد المـغـرب قـاصـداً الديار المصرية، وكـان مولاه جوهر القـائد قـد مهـد له فيهـا، وابتنى له «القصرين»؛ وكـان دخوله إليها فى شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة (٣٦٢) هـ.

يقول ابن كثير[١] :

وفيها كان دخول المعز الفاطمى الديار المصرية ، وصحبته توابيت آبائه ، فوصل إلى الإسكندرية فى شعبان ، وقد تلقاه أعيان مصر إليها ، فخطب الناس هنالك خطبة بليغة ارتجالاً ، ذكر فيها فضلهم وشرفهم ، وقد كذب ، فقال فيها : إن الله أغاث الرعايا بهم وبدولتهم .

وحكى قاضى بلاد مصر وكان جالسًا إلى جنبه فسأله : هل رأيت خليفة أفضل منِّى؟

فقال له : لم أر أحدًا من الخلفاء سوى أمير المؤمنين ، فقال له : أحججت؟ قال : نعم ، قال : وزرت قبر الرسول؟ قال : نعم ، قال : وقبر أبى بكر وعمر؟ قال : فتحيرت ما أقول ، فإذا ابنه العزيز مع كبار الأمراء ، فقلت : شغلنى عنهما رسول الله كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولى العهد من بعده ؛ ونهضت إليه وسلمت عليه ورجعت ، فانفسح المجلس إلى غيره .

ثم سار من الإسكندرية إلى مصر فدخلها فى الخامس من رمضان ، من هذه السنة (٣٦٢) هـ ؛ فنزل القصرين ا . هـ .

وفى أيامه بنيت القاهرة ؛ وكان قد عزف عن الدخول إلى الفسطاط مصر القديمة ، مع احتفاء أهلها بقدومه ، وتزين البلد له .

---

(١) البداية والنهاية ج : ١١ ، ص ٣٤٠ .

الإسماعيليون يعترفون بأن عبيد الله المهدى من ذرية القداح

لما مات آخر أئمة العبيديين على بن الحسين بن أحمد بن محمد بن إسماعيل انتقلوا عن ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ذرية سعيد بن أحمد بن حسين بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح، زاعمين أنه ابن السلسلة الإسماعيلية، ولقد خالفهم فى ذلك جميع المسلمين فى كل مكان، حتى فى المغرب نفسه، وفى طليعة الذين أنكروا عليهم ذلك أشراف العلويين الهاشميين أمثال: المرتضى والرضى وابن الأزرق الموسوى وأبو طاهر بن أبى الطيب ومحمد بن محمد بن عمرو بن أبى يعلى(١).

ولقد ظل هذا التزوير على الحقيقة خفيًا إلى حد ما، حتى ظهرت حديثًا بعض كتب الإسماعيليين التى كشفت النقاب ومزقت الأستار، فزال الغموض.

منها كتاب غاية المواليد الذى ألفه الخطاب بن الحسن بن أبى الحفاظ الهمدانى، المتوفى سنة ٥٣٣ هـ، ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وكان من علماء الإسماعيلية ودعاتهم، يقول فيه:

---

(١) البداية والنهاية ج: ١١، ص: ٣٩٧، ٣٩٨.

وذلك ما روى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ﷺ فى تسليمه الأمر إلى ولده إسماعيل، وغيبة(١) إسماعيل وولده محمد بن إسماعيل فى حد الطفولة.

فأودع حجته المنصوبة بين يدى ميمون القداح مقامه لولده، وأقامه ستراً عليه، وقدمه بين يديه، واستكفله إياه إلى بلوغه أشده؛ ولما بلغ أشده تسلم وديعته، ثم جرى الأمر من عقبه خلفًا عن سلف، حتى انتهى الأمر إلى على بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل(٢)، وكان على يديه طلوع الشمس، وذلك أنه لما ظهر النور باسقا باليمن وبلاد المغرب(٣)، سار ولى الله فى أرضه على ابن الحسين يريد بلاد المغرب، حتى كان فى بعض طريقه إلى الشام وأظهر الغيبة مات، استخلف حجته سعيد الخير(٤) الملقب بالمهدى عليهم السلام، فبث قواعد الدعوة، وجرى عليهما من ضدهما بسجلماسة من العمال بالمغرب ما جرى، ووقى الله بوليه كيده ا.هـ.

---

(١) الغيبة: الوفاة؛ ذلك أن معتقد الإسماعيليين بأن أئمتهم لا يموتون بل يغيبون.

(٢) غاية المواليد، أما كتاب أغاخان الرسمى، فإنه يورد السلسلة على النحو الآتى: عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن إسماعيل، مناقضًا للهمدانى وهذا الاضطراب ينسحب على غير هذين أيضًا، مما يدل على مجافاة الحقيقة فى أهم ما تقوم عليه دعوتهم، وهو النسب.

(٣) إشارة إلى ابن حوشب داعيتهم فى اليمن، وأبى عبد الله الشيعى داعيتهم فى المغرب.

(٤) القداح.

يقول الأستاذ المرحوم محب الدين الخطيب :

وهذا النص نقله الدكتور/ برنارد لويس : Bernard-Lewis أستاذ تاريخ الشرق الأدنى والأوسط بجامعة لندن فى كتابه أصول الإسماعيلية ص : ١٢٨ ـ ١٢٩ .

وقد استفدنا منه اعتراف الإسماعيليين بثلاث حقائق :

الأولى: الاعتراف بميمون القداح ، والدور الذى مثله فى صدر هذه النّحلة ، بعد الأساس الذى أقامه لهم أبو الخطاب .

الثانية: أن عبيد الله المهدى هو : سعيد بن أحمد بن حسين بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح .

الثالثة: وهى النتيجة المحتمة هى : أن العبيديين الذين يسمون أنفسهم الفاطميين هم من سلالة القداح ، لا من سلالة محمد بن إسماعيل بن جعفر ، إلا أن يكونوا غير صادقين فى أن القائم نزار هو ابن لعبيد الله المهدى .

ويقول الدكتور برنارد لويس فى الصفحة ١٣٩ :

وقد أخبرنى صديقى الأستاذ الأعظمى بأن أمثال هذه العبارة واردة فى كتب إسماعيلية باطنية أخرى يملكها ؛ وتضيف بعض العبارات إلى العبارة السابقة أن سعيداً نفسه من ولد القداح .

أما الأعظمى الذى يقول الدكتور برنارد لويس أنه صديقه ، فهو إسماعيلى هندى من المعاصرين معروف كثيراً فى مصر ، ونسبة

الأعظمى فهى إلى مدينة «أعظم كر» ومن أهلها سنيون وإسماعيليون، ونسبتهم جميعًا أعظمى[١].

وبالإضافة إلى هذه الوثيقة هناك وثيقة أخرى، هى رسالة، تقسيم العلوم[٢]، التى خلط فيها نسب القداح بالنسب الإسماعيلى حسب قاعدة التبنى الروحى أو النكاح الروحى وفق معتقدهم.

فقد جاء فى هذه الوثيقة عن نسب القداح أنه ابن أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل، فأسماء : أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله، لسلالة قداحية؛ وأما ما بعدها وهى أسماء : أحمد بن محمد بن إسماعيل فلسلالة علوية[٣].

ويعلق الدكتور برنارد لويس : Bernard Lewis على ذلك فيقول :

ما زالت الأئمة بين محمد بن إسماعيل وسعيد المهدى مشكلة من أعقد المشاكل فى التاريخ الإسلامى، فالمؤرخون من أهل السنة يروون لها روايات جديدة مختلفة[٤]؛ والإسماعيليون لا

(١) وهذه النسبة قد ترد فى بعض أهل العراق، ومردها إلى أحد أحياء بغداد حيث يوجد مسجد الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه وفيه قبره.
(٢) مخطوط رقم ١٤١٥ ورقة رقم ١١٧ وما بعدها عن دى ساسى (٢ ـ ٥٧٨).
(٣) كتاب أصول الإسماعيلية برنارد لويس ص : ١٦٣ .
(٤) هذا صحيح، ولكنهم متفقون على تزوير النسب.

يبدو أنهم متفقون فيما بينهم عليها؛ وقد بحث كثير من القدماء هذه المشكلة، وناقشوها نقاشًا دقيقًا؛ وحققها المستشرق دى جويه[1]: "M . J . De Goeje" قائلاً: والظاهر أننا نستطيع أن نتلمس مفتاح المشكلة فى عقيدتى: التبنى الروحى والإمامة المستودعة ا. هـ.

وقبل أن ننتقل إلى مبحث التبنى الروحى أو النكاح الروحى نعرِّف بمعنى كلمة القداح، تلك التى ترددت كثيراً فى حديثنا.

يقول ابن كثير فى البداية والنهاية: ج: ١١ ص: ٢٠٤.

قال ابن خلكان: والمحققون ينكرون دعواه فى النسب أى: عبيد الله المهدى؛ قلت: قد كتب غير واحد من الأئمة، منهم الشيخ أبو حامد الإسفراييني والقاضى الباقلانى والقدورى أن هؤلاء أدعياء ليس لهم نسب صحيح فيما يزعمونه، وأن والد عبيد الله المهدى هذا كان يهوديًا صباغًا، بـ«سلمية»، وقيل كان اسمه سعيد، وإنما لقب بعبيد الله زوج أمه الحسين بن أحمد بن محمد ابن عبد الله بن ميمون القداح، وسمى القداح لأنه كان كحالاً يقدح العيون ا. هـ.

---

(١) كان أستاذ العربية بجامعة ليدن وهولندا.

التبنى الروحى

جاء فى مقدمة كتاب أصول الإسماعيلية للأستاذ الدكتور عبد العزيز الدورى[1]، أن المستشرق لويس ما سينيون يقول بأن القرامطة اعتبروا حق العلويين الشرعى فى الخلافة وسيلة لا غاية، فالإمامة ليست ميزة محتكرة تورث فى عائلة، وإنما هى ميزة فكرية وتولية إلهية وتفويض، أى من حامل أسطورة الحلول الإلهى إلى حامل اللقب، ويكون ذلك إثر التنوير الذى يشرق فيه، مما يجعله الخلف أو الابن الروحى لسلفه.

ولهذا لم يعبأ عبيد الله المهدى القداح ببيان نسبه، لأنه لم يكن مهمًا بالنسبة لأتباعه، ولم يسألوه عنه إذ كانوا يريدون قبل كل شىء أن يكون حاصلاً على التفويض الإلهى والمستوى الذهنى الخاص، سواء كان علويًا أو لم يكن.

وفى هذه الإلماحة واللفتة التى استخلصها ماسينيون تأكيد على فكرة التبنى الروحى، أو النسب الروحى فى الإمامة لدى الإسماعيلية.

وفى المقدمة نفسها ملخص لنتيجة بحث الدكتور برنارد لويس فى هذا الشأن؛ فيقول: فى حياة الصادق جعفر بن محمد كوّن أبو

(١) أستاذ التاريخ الإسلامى فى دار المعلمين العالية فى بغداد.

الخطاب بالتواطؤ مع إسماعيل بن جعفر كما يظهر مذهبًا كان أساس المذهب الإسماعيلى فيما بعد. واشتغلوا لتكوين فرقة شيعية ثورية تجمع كل الفرق الشيعية الصغيرة حول إمامة إسماعيل وذريته.

وبعد وفاة أبى طالب وإسماعيل وجعفر انقسمت فرقتهم إلى عدة شعب متنازعة فى المبادئ والزعامة، ثم اجتمع حول محمد ابن إسماعيل، الذى نجح بمعاونة بعض الأنصار وخاصة المبارك حول إسماعيل وعبد الله بن ميمون القداح، فى أن يجمع بحركة واحدة أكثر أتباع إسماعيل، ومعظم الخطابية الذين أخذ مذهبهم مع بعض التعديل ا. هـ.

ولكن من هو أبو الخطاب هذا؟

هو: محمد بن مقلاص بن أبى زينب الكوفى، الأجدع، وإليه تُنسب فرقة الخطابية ولقد ظهرت فى عهد جعفر الصادق رضى الله عنه.

يقول أستاذنا المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة[١]:

وداعيتها رجل اسمه: أبو الخطاب الأسدى؛ وقد اشتهر بكنيته دون اسمه؛ وقد ذكر الشهرستانى أن اسمه: محمد بن زينب الأسدى الأجدع؛ ويظهر أن زينب اسم أمه، وقد ذكر المقريزى اسم أبيه فقال: إنه محمد بن أبى ثور، وقيل إن اسمه محمد بن يزيد الأجدع.

وكان أبو الخطاب فى عصر جعفر بن محمد من أجلِّ دعاته، فأصابه ما أصاب المغيرة[٢] فكفر، وادعى أيضًا النبوة، وزعم أن جعفر بن محمد إله، تعالى الله عن قوله، واستحل المحارم ورخص فيها، وكان أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه وقالوا: يا أبا الخطاب، خفِّف علينا، فيأمرهم بتركها، حتى تركوا جميع الفرائض، واستحلوا جميع المحارم، وارتكبوا

---

(١) كتاب الإمام جعفر الصادق ص: ٩٨، وفى بعض قوله نقل عن كتاب دعائم الإسلام للقاضى: أبى حنيفة النعمان الشيعى الفاطمى.

(٢) المغيرة بن سعيد وكان معاصراً لمحمد الباقر، وكان يقول بالتجسيم.

المحظورات، وأباح لهم أن يشهد بعضهم على بعض بالزور، وقال: من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه.

فبلغ أمره جعفر بن محمد، فلم يقدر عليه بأكثر من أن لعنه وتبرأ منه، وجمع أصحابه وعرفهم ذلك، وكتب إلى البلدان بالبراءة منه واللعنة عليه(١).

وأخذ أبو الخطاب ومن لف لفه يدعون إلى الزندقة والشرك والحلول، متذرعين بمحبة الناس لجعفر الصادق ومنزلته عندهم، وما آتاه الله من حكمة بالغة.

ولكن جعفراً الصادق رضى الله عنه قطع عليهم الطريق وأعلن على ملإ من الأمة البراءة منه، ونشر أولياءه فى الفرق يكذبون ويبينون أباطيله أى أبى الخطاب، وكان لذلك أثره فى صفوف أصحابه، فقد أحدث بينهم فرقة وانقسامًا، فأعلنت طائفة منهم براءتها من أبى الخطاب؛ ولكنه كان قوى الشكيمة، شديد التأثير فى المتصلين به، ولذلك استمر على دعايته بعد هذه البراءة، وفوق ذلك فقد كان مدفوعًا بدافع من الرغبة فى إفساد العقيدة الإسلامية بين أهلها؛ فلم يكن ضالاً حتى يعود إلى الحق إذا غضب الإمام عليه، بل كان مضلاً، يتخذ من اسم الإمام سبيلاً لتضليل الناس، وكان أنصاره على هذا المنهاج، يريدون هدم

(١) دعائم الإسلام ص: ٦٢، ٦٣.

الإسلام، ويريدون هدم الحكم الإسلامى العربى، وإعادة الحكم المجوسى الفارسى.

ولذلك جمع أتباعه فى مسجد الكوفة وأراد مقاتلة العباسيين، وملكهم غض لم تستقر دعائمه، وقد علم بأمرهم والى الكوفة إذ ذاك عيسى بن موسى، وكذِبهم على الإسلام، وتجرؤهم على استباحة المحرمات، فأرسل إليهم قوة من الجند تقضى عليهم، ولكنهم استقتلوا فى القتال مع قلة عَددهم وعُددهم.

وقد قال النوبختى فى المعركة:

حاربوا عيسى محاربة شديدة بالحجارة والقصب والسكاكين.

وكان أبو الخطاب قال لهم: قاتلوهم فإن قصبتكم تعمل فيهم عمل الرماح والسيوف، ورماحهم وسيوفهم لا تضركم ولا تعمل فيكم.

فقدمهم عشرة عشرة للمحاربة، فلما قتل منهم نحو ثلاثين، قالوا: ما ترى يحل بنا من القوم؟! قال لهم: إن كان قد بدا لكم فما ذنبى؟[1].

---

(١) فرق الشيعة للنوبختى: ص: ٥٩، ٦٠، ومعنى بدا لكم: أى سبق عليكم القول؛ وهذا مبدأ البداء عند الشيعة عامة.

وقد أسر أبوالخطاب، فأتى عيسى بن موسى وقتله فى دار الرِّزْق، وصلبه مع جماعة من أتباعه، وكان ذلك سنة ١٣٨ هـ. ا. هـ.

ويضيف الأستاذ المرحوم محب الدين الخطيب إلى ما قدمنا، فيقول:

ثم جمع طائفة من الملتفين حول جعفر الصادق رضى الله عنه وقام بمظاهرة فى الكوفة.

هتفوا فيها: «لبيك جعفر لبيك».

ثم صار أتباع أبى الخطاب يزعمون أنه أفضل من رسول الله ﷺ بل ادعى لنفسه وادعوا له أنه رسول الله.

وتروى الشيعة الإثنا عشرية[1]: عن عنبسة بن مصعب أن جعفر الصادق سأله:

أى شىء سمعته من أبى الخطاب؟ قال عنبسة: سمعته يقول: إنك وضعت يدك على صدره وقلت له: عه، ولا تنس؛ وأنك تعلم الغيب، وأنك قلت عنه: هو عيبة علمنا، وموضع سرنا، أمين على أحيائنا وأمواتنا.

فقال جعفر: لا والله؛ ما مَسَّ شىء من جسدى جسده إلا يده، وأما قوله إنى قلت: أعلم الغيب، فو الله الذى لا إله إلا هو لا

(١) ويقال أيضًا: الجعفرية أو الإمامية.

أعلم الغيب، ولا آجرنى الله فى أمواتى ، ولا بارك لى فى أحيائى إن كنت قلت له.

وكانت أمام جعفر جويرية سوداء تدرج، فقال: لقد كان منى إلى أم هذه أو إلى هذه بخطة القلم، فأتتنى هذه، ولو كنت أعلم الغيب ما كانت تأتينى.

ولقد قاسمت عبد الله بن الحسن حائطًا أى بستانًا بينى وبينه، فأصابه السهل والشرب، وأصابنى الجبل، فلو كنت أعلم الغيب لأصابنى السهل والشرب وأصابه الجبل.

وأما أنى قلت له: هو عيبة علمنا وموضع سرّنا، أمين على أحيائنا وأمواتنا، فلا آجرنى الله فى أمواتى ولا بارك لى فى أحيائى إن قلت له شيئًا من هذا قط(١).

وقال عمار بن أبى عتبة:

هلكت بنت لأبى الخطاب، فلما دفنها، اطلع يونس بن ظبيان فى قبرها فقال: السلام عليك يا بنت رسول الله، ولمّا انكشف عن أبى الخطاب ستار كفره، قال الصادق:

اللهم العن أبا الخطاب فإنه خوفنى قائمًا وقاعدًا، وعلى فراشى، اللهم أذقه حر الحديد.

---

(١) عن ترجمة أبى جعفر فى تنقيح المقال للمامقانى، أحفل كتب الجرح والتعديل لدى الإمامية.

صلة أبى الخطاب بإسماعيل بن جعفر

إن الأنباء عن اتصال أبى الخطاب بإسماعيل بن جعفر كثيرة وغزيرة، وذكرتها معظم كتب التاريخ، واستفاضت حتى لا يخلو منها مصدر؛ مع الإشارة إلى أن هذه الصلة كانت ذات أهداف وغايات، كلها تدور حول إقامة كيان دينى جديد، باسم إسماعيل ابن جعفر على الأسس التى يدعو إليها أبو الخطاب.

ونمى إلى علم والى الكوفة العباسى على بن موسى بن على بن عبد الله بن عباس أنباء كثيرة عن هذا النشاط، فأرسل إلى أبى الخطاب وطائفة من أتباعه مَن قتلهم وهم فى المسجد، ذلك أنهم كانوا يلزمون أساطين[١] المسجد ليوهموا الناس بأنهم من أهل الدين والعبادة والتقوى، ولقد جرى قتلهم عند تلك الأساطين، وصلبت جثث بعضهم.

ولما بلغ جعفراً نبأ قتلهم قال: لعن الله أبا الخطاب، ولعن من قتل معه، ولعن من بقى منهم، ولعن من دخل قلبه رحمة لهم، نقل ذلك عنه عمران الحلبى الذى سمعه منه»[٢].

وروى سدير بن حكيم الصيرفى وكان من أصحاب محمد الباقر وجعفر الصادق رضى الله عنهما قال:

---

(١) الأساطين: الأعمدة الأسطوانية.

(٢) أشرنا إلى ذلك من قبل.

كنت جالسًا عند جعفر، وميسر عنده ونحن فى سنة ١٨٨ هـ، ثمانية وثمانين ومائة، فقال له ميسر: جعلت فداك، عجبت لقوم كانوا يأتون معنا لهذا الموضع فانقطعت آثارهم وفنيت آجالهم، فقال جعفر: ومن هم؟ قال: أبو الخطاب وأصحابه، وكان جعفر متكئًا فجلس فرفع أصبعه إلى السماء ثم قال: على أبى الخطاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأشهد بالله أنه كافر فاسق مشرك، وأنه يحشر مع فرعون فى أشد العذاب، غدوًا وعشيًا.

إسماعيل بن جعفر

وكان إسماعيل بن جعفر أكبر إخوته، وكان أبوه جعفر شديد المحبة له، والبرّ به؛ ولقد مات في حياة أبيه بالعريض أحد ضواحي المدينة، وذلك بعد انتقال العائلة من العراق إلى الحجاز، وسكنى المدينة؛ فحمل نعشه من العريض على أعناق الرجال، ودفن بالبقيع.

ولقد كثر القول عن سوء سلوكه، وانحرافه، وتعاطيه الخمر.

ويذكر المامقاني في تنقيح المقال ج: ١، ص: ١٣٢:

أن الصادق رضي الله عنه قال في حق ابنه إسماعيل: (عاص.. عاص..) لا يشبهني ولا يشبه أحدًا من آبائي.

وقال الوحيد من علماء الشيعة:

وفي الصحيح عنه أي عن جعفر رضي الله عنه: والله ما يشبهني.

وفي حديث عنه: أنه نهاه عن إعطاء ماله شارب الخمر فلم ينته، فتلف.

وفي الكافي للكليني في باب النص على الرضي: لو كانت الإمامة بالمحبة لكان إسماعيل أحب إلى أبيك منك.

وأذاع الوليد بن صبيح وكان من رجال جعفر أسطورة تجاوزت

حد الخرافة، إلا أن الكتب، وكثير من العامة تناقلوها مصدقين لها.

قال الوليد: جاءنى رجل فقال لى: تعالَ حتى أريك ابن إلهك، فذهبت معه، فجاءنى إلى قوم يشربون ـ أى الخمر ـ فيهم إسماعيل بن جعفر عليه السلام هكذا !!!، فخرجت مغمومًا، فجئت إلى الحجر[١]، فإذا إسماعيل جالس مع القوم، فرجعت فإذا هو آخذ بأستار الكعبة، قد بلّها بدموعه، فذكرت ذلك لأبى عبد الله جعفر الصادق فقال: لقد ابتلى ابنى بشيطان يتمثل بصورته[٢] ا. هـ.

ولم يكن الصادق بصدقه وعلمه وإيمانه رضى الله عنه، ليقول ذلك أبدًا، وهذا محض افتراء عليه، كما افترى عليه فى أقوال أخر لم يقلها، ولم ينطق بها لسانه.

ويقول أستاذنا المرحوم محب الدين الخطيب:

(أما ميمون القداح وابنه عبد الله فقد سقط بينهما محمد بن إسماعيل، وفى هذه البؤرة تطورت الإسماعيلية، ونظمت على أساس تغيير دين الإسلام عما كان يعرفه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، إلى ما صار معروفًا بعد ذلك فى سيرة

---

(١) حجر إسماعيل عليه السلام عند الكعبة الشريفة.

(٢) المامقانى فى تنقيح المقال. وكتاب الخرائج.

الباطنيين والإسماعيليين فى ألف سنة والركن الأول فى ذلك هو التنكر لأصحاب رسول الله ﷺ؛ ولكل ما فهمه الصحابة من دين الإسلام، ومحاولة تأويل القرآن بغير ما كان معروفًا فى عصر تنزيله، لتكون منه رسالة أخرى غير الرسالة المحمدية ا.هـ.

الفسطاط

الموقع:

يقول المقريزى فى خططه :

اعلم أن موقع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر[١] كان فضاء ومزارع ، فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن ، يعرف بعضه اليوم بقصر الشمع وبالمعلقة[٢] ينزل به شحنة الروم المتولّى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من الإسكندرية ، ويقيم فيها ما يشاء ، ثم يعود إلى دار الإمارة ا . هـ.

التسمية:

اختلفت أقوال المؤرخين فى سبب هذه التسمية الفسطاط ، فالقزوينى[٣] يقول :

الفسطاط هى المدينة المشهورة بمصر ، بناها عمرو بن العاص ، قيل : إنه لما فتح مصر ، عزم الإسكندرية فى سنة عشرين (٢٠ هـ) وأمر بفسطاطه أن يقوض ، فإذا يمامة قد باضت فى أعلاه ، فقال : تحرمت بجوارنا ، أقرُّوا الفسطاط حتى تفقس وتطير

---

(١) يريد مصر القديمة ؛ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ج : ١) ص : ٢٨٦ .

(٢) المعلقة : الكنيسة المعلقة .

(٣) آثار البلاد وأخبار العباد ص : ٢٣٦ والفسطاط لغة : الخيمة الكبيرة .

فراخها، ووكل به من يحفظه، ومضى نحو الإسكندرية وفتحها، فلما فرغ من القتال قال لأصحابه: أين تريدون النزول؟ قالوا: أيها الأمير نرجع إلى فسطاطك لنكون على ماء وصحراء، فرجعوا إليها، وخط كل قوم خطًا بنوا فيها وسمى بالفسطاط ا. هـ.

ولقد تأثر بهذه الرواية أكثر المؤرخين المسلمين، لكن بعض المحققين المحدثين يرون أن هذه القصة هى نوع من الأساطير التى راجت حول تسمية المدن.

أما المستشرقون، فإن بعضهم يرى أن التسمية قد اشتق من أصل يونانى هو فسطاطوم الذى كان اسمًا للمدينة أو الحصن أو الخندق الذى كان عند بابليون، وهذا زعم لا يسنده أى دليل تاريخى.

ورأى ثالث يقول إن الفسطاط ومعناها المخيم قد أخذت من المخيم الذى أقامه جيش عمرو بن العاص عندما كانوا يحاصرون حصن بابليون، ومن ثم صار يطلق على المدينة التى شيدت مكانه.

وكلمة الفسطاط كلمة عربية، تعنى المدينة ومجتمعها؛ وقد جاء فى الحديث الشريف عن النبى ﷺ قوله: «عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الفسطاط» ـ أى: مع المدينة التى بها يجتمع الناس؛ وقد أطلق اللفظ على البصرة حينًا.

لذا يرى بعض المحققين أنه من المرجح أن المسلمين قد أطلقوا على المدينة التى أسسوها واختطوها فى مصر اسم الفسطاط بمعنى المدينة[١].

وتطورت الفسطاط من كونها معسكراً إلى أن أصبحت مدينة تجارية صناعية إدارية، وذلك بدءاً من إنشائها بعد الفتح سنة عشرين للهجرة (٢٠ هـ) إلى أن أحرقت بعيد منتصف القرن السادس الهجرى.

فلقد زيد عليها **«المعسكر»** فى الشمال الشرقى منها فى العصر العباسى، فى منطقة الحمراء؛ حيث بنيت دار للإمارة، ومسجد عرف بجامع العسكر، كما عرف بجامع ساحل الغلة، وصارت من بعد مدينة ذات أسواق ودور عظيمة.

وزيدت **«القطائع»** أيام أحمد بن طولون، الذى دخل الفسطاط سنة أربع وخمسين ومائتين (٢٥٤)هـ.

إذ صعد إلى جبل المقطم ونظر إلى ما حوله، فرأى بين العسكر والمقطم بقعة فضاء مساحتها نحو ميل مربع فأمر بإقامة مدينة عليها.

ووضعت خطط هذه المدينة سنة ست وخمسين ومائتين (٢٥٦) هـ.

---

(١) عن كتاب الفسطاط للأستاذ محمود عزب.

واختط ابن طولون قصره، وأمر أتباعه أن يشيدوا بيوتهم، وأقطعت كل جماعة من الجند منطقة خاصة بها، سميت بمن سكنها.

وعُمِّرت أسواق بها، منها سوق العيارين، وفيه: العطارون والبزازون، والجزارون والبقالون.

وبنيت بالمدينة المرافق الخاصة بها من مساجد وحمامات وطواحين وأفران، ومنها مسجد ابن طولون الذى لا يزال إلى يومنا هذا.

ومع هذه التطورات ازدهرت الفسطاط ازدهاراً عظيمًا.

يقول ابن حوقل فى صورة الأرض ص: ١٤٦:

والفسطاط مدينة كبيرة، نحو ثلث بغداد، على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة، ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام وبساتين نضرة ا. هـ.

ومن أهم مظاهر العمران الذى لحق بالفسطاط:

١ـ السبع سقايات؛ شيدها الوزير جعفر بن الفرات سنة خمس وخمسين وثلاثمائة (٣٥٥)، لتزويد سكان الفسطاط بالماء.

٢ـ دار الصناعة؛ لصناعة السفن الحربية والتجارية التى أنشئت فى عهد الوالى قرة بن شريك، وما زالت فى نمو وازدهار، حتى بعد عصر الفاطميين العبيديين وعصر المماليك أيضًا.

يقول المقدسى(١) عن الفسطاط :

إن الفسطاط هو مصر فى كل قول، اشتهر اسمه وجل قدره، كثير الأجلَّة والمشايخ، عجيب المتاجر والخصائص، حسن الأسواق والمعايش، ولقياسرته لياقه وبهاء، ليس فى الإسلام أكبر مجالس من جامعه، ولا أحسن تجملاً من أهله، ولا أكثر من مراكب ساحله، به أطعمة لطيفة، وحلاوات رخيصة، كثير الموز والرطب، غزير البقول والحطب، خفيف الماء، صحيح الهواء، معدن العلماء، طيب الشتاء، أهل سلامة وعافية، ومعروف كثير وصدقه، رغبتهم فى الخير بينة، ودورهم أربع طبقات وخمس، وسمعت أنه يصلى قدام الإمام يوم الجمعة عشرة آلاف رجل، فلم أصدق، حتى خرجت مع المتسرعة إلى سوق الطير، فرأيت الأمر قريبًا مما قالوا، ورأيت القياسر والمساجد والدكاكين حوله مملوءه من كل جانب من المصلين، وهذا الجامع يسمى الغلانى مسجد عمرو بن العاص، وقد التفت عليه الأسواق، وهو أعمر موضع بمصر، وزقاق القناديل عن يساره، والجامع الفوقانى من بناء ابن طولون أكبر وأبهى من السفلانى، مشرف على فم الخليج وغيره، وله زيادات، وخلفه دارٌ حسنة ا. هـ.

---

(١) أحسن التقاسيم فى معرفةالأقاليم ص: ١٩٧ ـ ١٩٨ .

ويقول الإصطخرى[١]:

وأما صفة مدنها وبقاعها ـ مصر ـ فإن مدينتها العظمى تسمى الفسطاط، وهى على النيل من شرقيه ـ شمالى النيل ـ والبلد كله على جانب واحد، إلا أن فى عدوة النيل أبنية قليلة تعرف بالجزيرة؛ جزيرة الروضة، يليها على الشط الآخر الجيزة.

ومعظم بنائها ـ الفسطاط ـ بالطوب، طبقات وأكثر، السفل منها غير مسكونة، وربما بلغت طبقات الدار الواحدة ثمانى طبقات، وبها مسجدان للجمعة، أحدهما: عمرو بن العاص فى وسط الأسواق، والآخر بأعلى الموقف، بناه أحمد بن طولون ا . هـ.

ويزيد ناصر خسرو على المقدسى والإصطخرى فى الإسهاب بوصف الفسطاط، ولا تظن أن أحداً أفاض فى الحديث كما فعل ناصر خسرو.

ونحن إذ نعرض لكل ذلك وبالتفصيل أحياناً إنما نهدف إلى بيان الجريمة التى ارتكبها العبيديون عندما أحرقوا الفسطاط وفداحة الخسارة.

يقول ناصر خسرو الرحالة عن الفسطاط بأنها:

شيدت على ربوة، وجانبها الشرقى جبلى، يتكون من جبال حجرية غير عالية، كالتلال، وفى طرق المدينة جامع ابن طولون،

(١) المسالك والممالك ص: ٣٨، ٣٩.

وهو مشيد على ربوة وله جدران محكمة، وبمصر بيوت مكونة من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات، وسمعت من ثقات الناس أن شخصًا غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار وحمل إليها عجلاً رباه حتى كبر، ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر، وزرع على هذا السطح شجر النارنج والموز وغيرهما، وقد أثمرت كلها، كما زرع فيها الورود والريحان وأنواع الزهور الأخرى.

وسمعت من تاجر ثقة أن بمصر دوراً كثيرة، فيها حجرات الاستغلال أي للإيجار، ومساحتها ثلاثون ذراعًا فى ثلاثين، وتَسَع ثلاثمائة وخمسين شخصًا..

وهناك أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائما، لأن الضوء لا يصل إلى أرضها ويسير فيها الناس.

وفى مصر سبعة جوامع غير جوامع القاهرة(١)، والمدينتان متصلتان، وفيهما معًا خمسة وعشرين جامعًا (مساجد الجمعة)، وذلك لتلقى خطبة الجمعة والصلاة فى كل حىّ منها.

وفى وسط سوق مصر جامع يسمى تاج الجوامع شيده عمرو ابن العاص أيام إمارته على مصر، من قبل عمر بن الخطاب، وهذا المسجد قائم على أربعمائة عمود من الرخام، والجدار الذى

(١) هذا الوصف كان سنة ٤٤٢هـ.

عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الأبيض الذى كتب عليها القرآن بخط جميل.

ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع، الأسواق، وعليها تفتح أبوابه، ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون، وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة، ولا يقل من فيه فى وقت عن خمسة آلاف، من طلاب العلم الغرباء، والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها.

وعلى الجانب الشمالى للمسجد سوق يسمى سوق القناديل لا يعرف سوق مثله فى أي بلد، وفيه كل ما فى العالم من طرائف؛ ورأيت هناك الأدوات التى تصنع من الذبل، كالأوعية، والأمشاط، ومقابض السكاكين وغيرها؛ ورأيت كذلك معلمين مهرة ينحتون بلوراً غاية فى الجمال، وهم يحضرونه من المغرب، وقيل إنه ظهر حديثًا عند بحر القلزم[(١)] بلور ألطف وأكثر شفافية من بلور المغرب.

ورأيت أنياب الفيل، أحضرت من زنجبار، كما أحضر جلد بقر من الحبشة يشبه جلد النمر، ويعملون منه النعال، وقد جلبوا من الحبشة، طائراً أليفًا كبيراً، به نقط بيضاء، وعلى رأسه تاج مثل الطاووس، وتنتج مصر عسلاً وسكراً كثيراً.

---

(١) البحر الأحمر.

ويقول أيضًا بأنه رأى فى شهرى ديسمبر ويناير ـ كانون الأول وكانون الثانى ـ بالفسطاط فى يوم واحد هذه الأصناف من الفواكه والرياحين : الورد الأحمر ، والنيلوفر ، والنرجس ، والترنج والنارنج والليمون والمركب[١] والتفاح والياسمين والريحان الملكى ، والسفرجل والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والرطب والعنب وقصب السكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والقثاء والبصل والثوم والجزر والبنجر[٢] .

كل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التى بعضها ربيعى ، وبعضها صيفى ، وبعضها شتوى ، لا يصدق هذا ، ولكن ليس لى قصد فيما ذكرت ، ولم أكتب إلا ما رأيت ، وأما ما سمعته ثم كتبته ، فليست عهدته علىَّ .

وولاية مصر عظيمة الاتساع ، بل كل أنواع الجو ، من البارد والحار ، وتجلب كل الحاجيات لمدينة مصر من جميع البلاد ويباع بعضها فى الأسواق .

ويصنع بمصر الفخار من كل نوع ، وهو لطيف وشفاف ، بحيث إذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها .

---

(١) الليمون الأضاليا .

(٢) الشمندر .

وسمعت من بزار ثقة أن وزن الدرهم الواحد من الخيط يشترى بثلاثة دنانير «مغربية»، وهى تساوى ثلاثة دنانير ونصف «نيسابورية».

ومدينة مصر - الفسطاط - ممتدة على شاطئ النيل الذى عليه القصور والمناظر الكثيرة، بحيث إذا احتاجوا إلى الماء رفعوه بالحبال من النيل، أما ماء المدينة فيحضره السقائون من النيل أيضًا، يحمله بعضهم على الإبل وبعضهم على كتفه، ورأيت قدوراً من النحاس الدمشقى، كل واحد يسع ثلاثين مَنا، وكانت من الطلاوة بحيث تظنها من ذهب؛ وقد حكوا لى أن امرأة تملك خمسة آلاف قدر، وأنها تؤجر الواحد منها بدرهم فى الشهر، وينبغى أن يردها المستأجر سليمة.

وتجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعون، وإذا كذب أحدهم على مشتر فإنه يوضع على جمل، ويعطى جرسًا بيده، ويطاف به فى المدينة، وهو يدق الجرس، وينادى قائلا:

قد كذبت وها أنا أعاقب، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب.

ويعطى التجار فى مصر - من بقالين وعطارين وبائعى خردوات - المشترى، الأوعية اللازمة لما يبيعون، من زجاج أو خزف أو ورق، حتى لا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاءً.

ويستخرجون من بذور الفجل واللفت زيتًا للمصابيح يسمونه: الزيت الحار، والسمسم هناك قليل؛ وزيته غزير، وزيت الزيتون رخيص، والفستق أغلى من اللوز، ولا تزيد العشرة أطنان من اللوز على دينارٍ واحد.

ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحمر المسرجة فى ذهابهم وإيابهم، من البيوت إلى السوق، وفى كل حى على رأس الشوارع حمر كثيرة، عليها برادع مزينه، يركبها من يريد، نظير أجر زهيد، وقيل إنه يوجد خمسون ألف بهيمة مسرجة، تزين كل يوم وتكرى.

ولا يركب الخيل إلا الجند والعسكر، فلا يركبها التجار أو القرويون أو أصحاب الحرف، ويركبها العلماء؛ ورأيت كثيراً من الحمر البلق، كالخيل، بل أجمل.

وكان أهل مصر فى غنى عظيم، حين كنت هناك فى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ٤٣٩هـ؛ ورأيت هناك رباطًا يسمى: دار الوزير، لا يباع فيه سوى القصب، وفى الدَّور الأسفل منه يجلس الخياطون، وفى الأعلى الرفاؤون، وقيل إن فى هذه المدينة مائتى رباط أكبر منه، أو مثله[1] ا. هـ.

(١) قدرت مساحة الفسطاط يومئذ بـ ٣٤٠ فدانًا، وقدر عدد سكانها بـ ١٢٠ ألف نسمة.

دولة العبيديين والفسطاط

يقول المرحوم الأستاذ محب الدين الخطيب :

ودولة العبيديين تأسست فى القيروان وبلاد المغرب، منذ أسس عبيد الله المهدى ٢٦٠ ـ ٣٢٢ بلدة المهدية هناك ولما مات سنة ٣٢٢هـ؛ تولى بعده ابنه القائم نزار ٢٨٠ ـ ٣٣٤ ثم حفيده المنصور إسماعيل ٣٠٢ ـ ٣٤١ والد المعز بانى القاهرة ومؤسس دولتهم فى مصر .

وفيما بين عبيد الله المهدى والمعزّ كانوا يستعدون بالمال والرجال للاستيلاء على مصر؛ وحاولوا ذلك مرتين قبل المدة الأخيرة التى استفادوا فيها من اختلال أمر مصر بموت كافور الإخشيدى ١٠ جمادى الأولى ٣٥٧هـ؛ فاستطاع قائدهم جوهر أن يستولى على مصر سلمًا بلا حرب ولا دفاع، وكان قيام جوهر من القيروان تونس يوم الجمعة ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ، ووصل إلى مصر فى شعبان من تلك السنة، وتم له فى يوم ١٧ شعبان الاستيلاء على السلطة المطلقة فى وادى النيل، وكانت العاصمة المصرية من بدء دخول الإسلام إلى مصر إلى يوم دخول جوهر هى مدينة الفسطاط؛ مصر القديمة الآن، وكانت من أعمر الأمصار الإسلامية وأغناها وأسعدها؛ وقد وصف القاضى محمد

ابن سلامة القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ . ما كانت عليه مدينة الفسطاط قبل أن تبنى القاهرة فقال :

كان فيها من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد ، ومن الحمامات ألف ومائة وسبعون حمامًا ، ومن الشوارع المسلوكة ثمانية آلاف شارع ، وكانت أسواقها عامرة بكل شيء من أنفس البضائع إلى أكمل الكماليات .

وضرب المثل لذلك :

بأن قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون احتاجت إلى ألف تكة من التى تساوى الواحدة منها عشرة دنانير ذهبًا ، فجاء رسلها إلى سوق الفسطاط بعشرة آلاف دينار فوجدوا ما طلبوه ميسوراً بأسرع وقت ، وأهون سعى .

وكانت الفسطاط عامرة بالمنازل الشاهقة ، وكثير منها خمس طبقات وست وسبع ، وكان بعض المنازل من السَّعة وكثرة الحدائق بحيث يتسع المنزل الواحد لمائتين (٢٠٠) من الناس .

وكان فى الفسطاط دار عبد العزيز بن مروان(١) يصب فيها لساكنيها فى كل يوم أربعمائة راوية ماء ، وفى داخل هذه الدار خمسة مساجد واسعة ، وحمامات كالحمامات العامة ، وعدة أفران كاملة العدة يخبز بها عجين أهلها .

---

(١) كان واليا على مصر زمن أبيه عبد الملك وأخيه الوليد ، وقد تحول عنها إلى حلوان .

أما بضاعة العلم في الفسطاط فكانت أغلى البضائع وأنفسها وأكثرها رواجًا، وفضلاً عن الأسواق التي كانت للكتب، فقد كانت صناعة النسخ واسعة النطاق، يعيش منها آلاف من المشتغلين بالعلم، لأن المكتبة كانت زينة المنزل في كل أسرة مثقفة، وحلقات العلم تعقد في المساجد التي بلغ عددها ستة وثلاثين ألف مسجد؛ وكان جامع عمرو بن العاص، الذي يسمى تاج الجوامع مباءة التحديث والتدريس في زمان الصحابة رضوان الله عليهم إلى زمن الأئمة الليث بن سعد ومحمد بن إدريس الشافعي وأضرابهما.

وحتى في سنة ٧٤٩ هـ كانت حلقات الدرس الدائمة كل يوم بلا انقطاع في جامع عمرو لا تقل عن بضع وأربعين حلقة، كما ذكر الجلال السيوطي في حسن المحاضرة[1]، فما بالك بما كانت عليه الحال قبل الإعراض عن الفسطاط، واتخاذ القاهرة عاصمة البلاد.

هذه هي الفسطاط التي جاء جوهر القائد حاملاً أوامر مولاه المعز بأن يعرض عنها، وأن ينشئ عاصمة أخرى غيرها للبلاد، فأنشأ جوهر في شمالي الفسطاط مدينة سماها في بادئ الأمر المنصورية نسبة إلى المنصور إسماعيل والد المعز العبيدي.

---

(١) ج: ٢، ص: ١٣٦.

القاهرة المعزية

وفى أوائل شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ٣٦٢هـ، وصل المعز من المغرب، فخرج أعيان الفسطاط، وأشرافها وعلماؤها لاستقباله فى الجيزة، وكانت الفسطاط قد استعدت لاستقباله، فزينها أهلها أجمل زينة.

فلما سار موكبه من الجيزة وجاز النيل إلى الشاطئ الشرقى أبى أن يدخل الفسطاط، وجعلها خلف ظهره بما فيها من زينات واستعداد لم يسبق له نظير، وأمر موكبه بالاتجاه إلى المنصورية، التى صدر أمره فى ذلك الحين أن تسمى القاهرة المعزية.

التحدى

وفى أثناء سير الموكب أراد أشراف الفسطاط من العلويين أن يعلموا درجة قرابتهم من ابن عمهم الجديد. فتقدم إليه ثلاثة منهم، هم أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسينى، وأبو إسماعيل إبراهيم بن أحمد الحسينى وأحد أبناء أبى محمد عبد الله بن أحمد بن على بن الحسن بن إبراهيم بن طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، فسألوه:

إلى من ينتسب مولانا؟ فأجابهم المعز: سنعقد مجلسًا ونجمعكم ونسرد عليكم نسبنا.

فلما اجتاز المبانى الجديدة فى المنصورية التى صار اسمها القاهرة، وكانت خالية خاوية، وعلى غير استعداد لاستقباله، للاعتقاد السائد بأنه سيقابل المصريين فى بلدهم الفسطاط، وصل موكبه إلى القصر الذى بنى له، فلما استقر به المقام، جمع الناس فى مجلس عام، وقال للأشراف: هل بقى من رؤسائكم أحد؟ قالوا: لم يبق معتبر.

فَسَلَّ عند ذلك سيفه إلى النصف وقال: هذا نسبى؛ ونثر عليهم ذهبًا كثيراً، وقال: هذا حسبى.

ففهموا من ذلك أن الرجل من معدن آخر، غير معدنهم، واكتفوا بهذا الجواب عن السؤال الذى كان يجول فى خواطرهم ولا يجدون جوابًا عليه[١].

(١) وفى الكتاب الرسمى لبدعة الإسماعيلية، رسم المعز وقد استل السيف جميعه، وذلك مقابل الصفحة ٢٣٠ من الكتاب: نورمبين.

العزيز بن المعز

وفى السنة الثالثة من دخول المعز إلى مصر وافته المنية[١]، فتولى ابنه الأصغر العزيز ـ نزار الحكم والخلافة مكان أبيه؛ وكانت ولادة العزيز بالمهدية سنة ٣٤٤ هـ وكانت وفاته فى بلبيس سنة ٣٨٦ م ومدة حكمه إحدى وعشرين سنة.

ومما يؤثر عن استمرار التحدى فى معرفة نسب العبيديين، ويطعن عليهم فى تزوير التاريخ، أنه فى بداية عهد العزيز وقد صعد المنبر فى يوم جمعةٍ، فوجد فى أعلى درجاته رقعة فيها هذه الأبيات:

إنا سمعنا نسبًا منكرا يتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقًا فاذكر أبا بعد الأب الرابع[٢]
وإن ترد تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسك كالطائع[٣]
فإن أنساب بنى هاشم يقصر عنها طمع الطامع

ولقد بلغ الغرور بالعزيز ذات يوم وكان فى السنة الأولى من

(١) كانت ولادته بالمهدية، ووفاته بمصر سنة ٣٦٥.
(٢) الأب الرابع هو: عبيد الله المهدى؛ لو قبل العزيز التحدى لاضطر إلى ذكر حقيقة النسب الذى ينتهى إلى القداح.
(٣) الطائع الخليفة العباسى فى بغداد، وكان معاصرًا للعزيز ونسبه إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما لا غبار عليه، ولا طعن فيه.

ولايتـه، أن يكتب إلى الخليـفـة الأمـوى فى الأندلس الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر كتاباً يسبه فيه ويهجوهُ من غير سابقة خصومة أو داع إلى ذلك.

ومن المعلوم المشهور تاريخيًا أن الحكم كان من كبار علماء قريش فى عصره، ومن أكثر فضلاء المسلمين إلمامًا بالأدب والتاريخ، واطلاعًا واسعًا بمعرفة الأنساب.

فماذا كان جواب الحكم؟

لقد اكتفى بأن كتب إلى العزيز العبيدى أربع كلمات فقط، وعلى نفس الكتاب الذى جاءه منه، فأصابت من العزيز مقتلاً، لأنها وافقت الحقيقة التى أراد العبيديون أن يزوروها على التاريخ، ويغالطوا أهله.

قال الحكم: عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك.

رقعة أخرى

مـعلوم ولا شك فى ذلك أن المـذهب البـاطنى، الذى كـان العبيديون يؤمنون به ويقدمونه، ويقومون على حراسته ونشره، وتأييد دعوته يقضى لهم بالحلول وعلم الغيب.

وهذا هو الأساس الأول الذى أسسه لهم أبو الخطاب محمد بن مقلاص بن أبى زينب، منذ أيام الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه، واستحق عليه اللعنة من الصادق، وسفك الدم من أبى جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين، على يد عامله على الكوفة كما قدمنا.

فلما أخذ العزيز يدس هذه العقيدة على أيدى دعاته، ودعاة دعاته، لم يكن أهل العلم والحق ليسكتوا على هذه الحماقة، والمروق من الدين.

ويذكر لنا ابن خلكان أن العزيز العبيدى صعد المنبر يومًا فرأى فيه رقعة مكتوب فيها:

بالظلم والجور قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أعطيت علم غيب ... فاذكر لنا كاتب البطاقة

ومن الطبيعى أن لا يقدر العزيز ولا غيره، ممن سبقوه أو لحقوه، أن يفعل ذلك وهذه صورة من صور التحدى الذى كان يواجه به دعاة هذه النحلة الضالة المضلة.

الحاكم بأمر الله[١]

وهو الإمام الثالث عند العبيديين بعد المعز والعزيز ٣٧٥ـ ٤١١هـ؛ وهو ابن العزيز، تولى وهو ابن إحدى عشرة سنة؛ ولقد نكبت مصر بأحكامه طوال ربع قرن هى مدة حكمه.

يقول الأستاذ الخطيب رحمه الله:

وكانت له شخصيتان مختلفتان: إحداهما شخصيته الصريحة التى يصدر فيها عما اعتقده أهل بيته من أيام أبى الخطاب فى زمن جعفر الصادق وابنه إسماعيل، والشخصية الأخرى هى التى يمثل فيها دور صاحب السلطان إذا راعى ظروف سلطانه.

ويحدثنا الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه عن الحاكم بأمر الله ص: ٨٦، عن نسب الحاكم ومولده، فيقول: ولى الحاكم بأمر الله الخلافة حدثًا دون الثانية عشرة[٢]، وكان مولده بالقصر الفاطمى بالقاهرة المعزية، فى الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٧٥هـ ١٣ أغسطس «آب» سنة ٩٨٥م؛ وأمه أم ولد، وقد كانت حسبما تقول الرواية الكنسية المعاصرة ـ جارية رومية نصرانية، من طائفة الملكية[٣]، وكان لها أيام المعز نفوذ عظيم فى الدولة.

(١) للأستاذ المؤرخ محمد عبد الله عنان. كتاب قيم عن الحاكم بأمر الله، طبع مكتبة الخانجى القاهرة.

(٢) يقول المقريزى فى خططه ج: ٤. ص: ٦٨٠ أن عمره كان إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام.

(٣) الأقباط الكاثوليك.

ويشكك الأستاذ عنان فى هذه الرواية مستدلاً بعدة أدلة، تاريخية ومنطقية، ويجعل نسبة ست الملك أخت الحاكم صحيحة إلى تلك الأم الجارية الرومية النصرانية، لأنها كانت تظهر العطف على النصارى، فى زمن والدها العزيز ومن بعده، أما الحاكم فقد كان على خلاف ذلك تمامًا.

وسنورد هنا طائفة من أقوال المؤرخين عن شخصية الحاكم.

يقول الوزير جمال الدين فى كتابه أخبار الدولة المنقطعة:

وكان الحاكم سيئ الاعتقاد، كثير التنقل من حال إلى حال، وكان مؤاخذًا بيسير الذنب، حادًا، لا يملك نفسه عند الغضب، فأفنى أمما وأجيالاً وأقام هيبة عظيمة وناموسًا.

ويقول ابن العميد فى تاريخ المسلمين:

وكان أى الحاكم ردىء السيرة، فاسد العقيدة، مضطربًا فى جميع أموره، يأمر بالشىء ويبالغ فيه، ثم يرجع عنه، ويبالغ فى نقيضه.

ويقول صاحب مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان(١):

وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة العلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء، وكان الغالب عليه الصلاح، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط.

(١) قز أوغلى المعروف بسبط ابن الجوزى.

ويقول ابن خلكان ج: ٢ ص: ١٦٦:

وكان جوادًا سمحًا، خبيثًا ماكرًا، رديء الاعتقاد، سفاكًا للدماء، قتل عددًا كبيراً من كبراء دولته صبراً[١]، كان عجيب السيرة، يخترع كل وقت أموراً وأحكامًا يحمل الرعية عليها.

ويقول ابن خلدون ج: ٤، ص: ٦٥:

وكان حاله مضطربًا فى الجور والعدل، والإخافة والأمن، والنسك والبدعة.

ونعود لما قاله الأستاذ الخطيب رحمه الله عن شخصية الحاكم بأمر الله:

فمن شخصيته الصريحة التى صدر عن عقيدة أهل بيته، أنه أمر الناس وهو فى الثامنة عشرة من عمره سنة ٣٩٣هـ بالسجود إذا ما ذكر اسمه فى الخطبة[٢]، وفى سنة ٤٠٨ هـ أى بعد خمس عشرة سنة نهى عن تقبيل الأرض له، وعن الصلاة عليه، واكتفى بأن يقال فى خطبة الجمعة: السلام على أمير المؤمنين: وأصدر أمره، وهو فى العشرين من عمره سنة ٣٩٥هـ، بأن يكتبوا على جدران المساجد والمدافن والشوارع سب أصحاب رسول الله ﷺ، وكتب المراسيم الرسمية إلى جميع ولاة الدولة وعمالها يأمرهم

(١) انظر كتاب الحاكم بأمر الله لعبد الله عنان ص: ١٠٦ـ١١٧.

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ٢: ١٥٠.

بتعميم هذا النسب، وما زال مستمراً فى بغيه هذا على دين الله ورسوله سنتين كاملتين، ثم عاودته شخصيته الثانية، أو أيقظه لها بعض من يخافون على هذه الأسرة أن ينقلب بغيها عليها، فأصدر أوامره فى سنة ٣٩٧هـ، بالعدول عن هذه الزندقة. وفى سنة ٤٠٠هـ، بنى له داراً زعم أنها للعلم، وأنه أباح فيها ذكر مناقب أصحاب رسول الله ﷺ، لكنه عاد بعد ثلاث سنوات فهدم الدار، وسفك دماء خلق مما كان فيها من الفقهاء والمحدثين وأهل الخير والديانة[١] ا.هـ.

(١) حسن المحاضرة للسيوطى.

الشيزوفرانيا وشخصية الحاكم

هذا التناقض والتضارب والاضطراب فى شخصية الحاكم مجمع عليه، سواء ممن رأوا فيه أهلية الحكم والسلطان، والخلافة والإمامة، وكذلك الجانب المضىء فى الجود والتدين والتورع، والجرأة فى اتخاذ القرار والغيرة على الدين، أو أولئك الذين ناصبوه وآباءه وجدوده العداء، وطعنوا فى نسبهم إلى آل البيت.

هذا التناقض يفسره علماء النفس بالشيزوفرانيا أو انفصام الشخصية.

والحاكم فى صورتيه لا يعرف التوسط والاعتدال، بل يذهب فى كلتيهما إلى أقصى مدى وأبعده.

لقد رأى بعضهم فى شخصية الحاكم عبقرية، ورأى الآخرون فيها شذوذاً وجنونًا؛ وهذا يصدق تمامًا لدى القائلين بأن بين العبقرية والجنون خيطًا دقيقًا، وفاصلاً ضعيفًا.

كما يرى آخرون بأن النجاح فى المسعى وبلوغ الغاية عبقرية، وأن الفشل أوالسقوط يحكم على صاحبه بالجنون.

نعم لقد نكبت مصر ومعها البلاد التى خضعت لسلطان العبيديين فى الشام والحجاز بالفواجع من أحكام وقرارات ومراسيم الحاكم، على مدى ربع قرن من الزمان.

ولدى مراجعتى ودراستى لعهد الحاكم صدمت بالعدد الهائل من تلك القرارات، وبدا لى أنه ما مرّ يوم من أيام تسلطه إلا وكان له فى ذلك اليوم قرار ومرسوم، سواء كان تنظيمًا جديدًا تفتق عنه ذهنه، أو أوحاه إليه خياله المريض، نقضًا لما سبق.

لقد كان كما اشتهر عنه كثير القلق قليل المنام، يسهر الليالى الطوال، خاليًا بنفسه، مع تأملاته فى الكواكب والنجوم التى كان يحب ويهوى رصدها؛ وتقاربها وتباعدها، وظهورها وخفائها، واشتداد تألقها أو ضعفه؛ ويربط كل ذلك بالأحداث، ثم يعزم على الأمور والقرارات والمراسيم.

محاضر الطعن فى نسب العبيديين

ويحدثنا الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية[١] عن أحداث سنة ٤٠٢هـ، فيقول:

وفى ربيع الآخر منها كتب هؤلاء[٢] ببغداد محاضر تتضمن الطعن والقدح فى نسب الفاطميين، وهم ملوك مصر، وليسوا كذلك، وإنما نسبهم إلى عبيد الله بن سعيد الجرمى؛ وكتب فى ذلك جماعة من العلماء والقضاة والأشراف والعدول، والصالحين والفقهاء والمحدثين، وشهدوا جميعًا أن الحاكم بمصر هو منصور بن نزار الملقب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار والخزى والدمار، ابن معد بن إسماعيل بن عبد الله بن سعيد ـ لا أسعده الله ـ فإنه لما صار إلى بلاد المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدى؛ وأن من تقدم من سلفه أدعياء خوارج، لا نسب لهم من ولد على بن أبى طالب، ولا يتعلقون بسبب، وأنه منزه عن باطلهم، وأن الذى ادعوه إليه باطل وزور، وأنهم لا يعلمون أحدًا من أهل بيوتات على بن أبى طالب، توقف عن إطلاق القول فى أنهم خوارج كذبة.

وقد كان هذا الإنكار لباطلهم شائعًا فى الحرمين[٣]، وفى

(١) البداية والنهاية ج: ١١، ص: ٣٩٧.
(٢) سوف يذكر أسماءهم بعد قليل.
(٣) يعنى الحجاز؛ مكة والمدينة.

أول أمـرهم بالمغـرب منتـشـراً انتـشـاراً يمنع أن يدلس أمـرهم على أحـد، أو يذهب وهم إلى تصـديقـهم فـيـمـا ادعـوه، وأن هذا الحـاكم بمصر، هو وسلفه كـفـار فسـاق فـجـار، ملحـدون زنادقـة مـعطلون، وللإسـلام جـاحـدون، ولمذهب المجـوسيـة والثنوية مـعـتـقـدون، قـد عطلوا الحـدود، وأباحـوا الفـروج، وأحـلوا الخـمـر، وسـفكوا الدمـاء، وسـبـوا الأنبـيـاء، ولعنوا السلف وادعـوا الربوبيـة، وكـتـب فى سنة ثنتين وأربعـمـائة ٤٠٢هـ.

وقد كتب خطه فى المحضر خلق كثير.

فـمـن العلويين: المرتضى والرضى وابن الأزرق الموسـوى وأبو طاهر بن أبى الطيب ومـحـمـد بن مـحـمـد بن عـمـرو بن أبى يعلى.

ومن القضـاة: أبو محمد بن الأكفانى وأبو القاسم الجزرى وأبو العبـاس بن الشـيـورى ومن الفـقـهـاء: أبو حـامـد الإسـفـراييني والقـدورى والصـيـمـرى والبـيـضـاوى وأبو الفـضـل النسـوى وأبو عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة، وأبو على بن حكمان.

ومن الشهود: أبو القاسم التنوخى فى كثير منهم.

وقد صنف القـاضى أبو بكر البـاقلانى كـتـابًا فى الرد على هؤلاء يعنى العبيديين، وسـماه: كـشف الأسرار وهتك الأستار، يبين فيه

فضائحهم وقبائحهم، ووضح أمرهم لكل أحد.

ووضوح أمرهم ينبئ عن مطاوى أفعالهم وأقوالهم.

وللقاضى الباقلانى رحمه الله عبارة محكمة فيهم إذ يقول: هم قوم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض.

نهاية الحاكم

قال ابن كثير فى البداية والنهاية(١):

كان قد تعدى شره إلى الناس كلهم حتى أخته: ست الملك، وكان يتهمها بالفاحشة، ويسمعها أغلظ الكلام، فتبرمت منه، وعملت على قتله، فراسلت أكبر الأمراء، أميراً يقال له: ابن دواس، فتوافقت هى وهو على قتله، وتواطآ على ذلك، فجهز من عنده عبدين أسودين شهمين، وقال لهما: إذا كانت الليلة الفلانية فكونا فى جبل المقطم، ففى تلك الليلة يكون الحاكم هناك فى الليل ينظر فى النجوم، وليس معه أحد إلا ركابى وصبى، فاقتلاه واقتلاهما معه، واتفق الحال على ذلك.

فلما كانت تلك الليلة قال الحاكم لأمه: علىّ فى هذه الليلة قطع عظيم، فإن نجوت منه عمرت نحواً من ثمانين سنة، ومع هذا فانقُلى حواصلى إليك، فإن أخوف ما أخاف عليك من أختى، وأخوف ما أخاف على نفسى منها.

فنقل حواصله إلى أمه، وكان له فى صناديق قريب من ثلاثمائة ألف دينار، وجواهر أخر؛ فقالت له أمه: يا مولانا إذا كان الأمر كما تقول فارحمنى ولا تركب فى ليلتك هذه إلى موضع.. !وكان يحبها، فقال: أفعل.

(١) ج: ١١، ص: ١٢.

وكان من عادته أن يدور حول القصر كل ليلة، فدار ثم عاد إلى القصر، فنام إلى قريب من ثلث الليل الأخير، فاستيقظ وقال: إن لم أركب الليلة فاضت نفسى، فثار فركب فرسًا، وصحبه صبى وركابى، وصعد جبل المقطم، فاستقبله ذلك العبدان، فأنزلاه عن مركوبه، وقطعا يديه ورجليه، وبقرا بطنه.

فأتيا به مولاهما ابن دوّاس، فحمله إلى أخته، فدفنته فى مجلس دارها؛ واستدعت الأمراء والأكابر والوزير، وقد أطلعته على الجلية، فبايعوا لولد الحاكم أبى الحسن على ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله وكان بدمشق، فاستدعت به، وجعلت تقول للناس: إن الحاكم قال لى إنه يغيب عنكم سبعة أيام ثم يعود، فاطمأن الناس، فجعلت ترسل ركابيين إلى الجبل، فيصعدونه، ثم يرجعون فيقولون: تركناه فى الموضع الفلانى، ويقول الذين بعدهم لأمه: تركناه فى مواضع كذا وكذا. حتى اطمأن الناس.

وقدم ابن أخيها، واستصحب معه من دمشق ألف ألف دينار، وألفى ألف درهم؛ فحين وصل ألبسته تاج جد أبيه المعز، وحلة عظيمة، وأجلسته على السرير[1]، وبايعه الأمراء والرؤساء، وأطلق لهم الأموال، وخلعت على ابن دواس خلعة سنية هائلة، وعملت عزاء أخيها الحاكم ثلاثة أيام، ثم أرسلت

(١) يعنى: كرسى الحكم.

إلى ابن دواس طائفة من الجند ليكونوا بين يديه بسيوفهم وقوفًا في خدمته، ثم يقولوا له في بعض الأيام: أنت قاتل مولانا، ثم يهبرونه بسيوفهم، ففعلوا ذلك، وقتلت كل من اطلع على سرها في قتل أخيها، فعظمت هيبتها، وقويت حرمتها، وثبتت دولتها.

وقد كان عمر الحاكم يوم قتل سبعًا وثلاثين سنة؛ ومدة ملكه من ذلك خمسًا وعشرين سنة ا.هـ.

دعوى النسب

أورد الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه الحاكم بأمر الله أكثر الروايات المؤيدة والمعارضة. للعبيديين حول دعوى النسب، مع استعراض واسع للمراجع التاريخية و الوثائق، كما أنه أفاض فى الاستشهاد بما كتبه المستشرق الروسى إيفانوف(١)، فى ذلك الموضوع وحماسه الشديد إلى صحة النسب وسخريته من: فون همر، ودوزى، ودى جويه ـ الذين حققوا فى ذلك ـ وصدَّقوا النسبة إلى ميمون القداح.

ولا يفوت إيفانوف أن يطعن فى صحة المحاضر التى وقعها العلماء والفقهاء والقضاة وينسبهم إلى الخضوع للخليفة العباسى فى هذا الصدد.

وبعد أن يفيض الأستاذ عنان فى تفنيد الروايات المؤيدة، بالأدلة والبراهين القاطعة، يقول(٢):

وإنه ليسوغ لنا أن نتساءل بعد ذلك، عما يحملنا على الشك فى أقوال الروايات التاريخية المتوالية التى تأبى نسبة الفاطميين إلى آل البيت، وقد أوردنا من هذه الروايات عدةً لطائفة متعاقبة من

---

(١) Ismaili Tradition Coneerning the (W. Iwanow) Rise of the fatimids (1912) (p:29 - 32).

(٢) ص: ٧٣ـ٧٤.

المؤرخين والنسابين، ومنهم أقطاب لا يشك فى نزاهتهم، وصدق روايتهم، ولم تكن لديهم أسباب مذهبية أو سياسية خاصة تحملهم على الطعن فى نسب الفاطميين، وفى إمامتهم، ومنهم كثيرون لم يكونوا من صنائع بنى العباس، ولم يعيشوا فى كنفهم، بل منهم من أثر عنه الميل إلى الفاطميين، والتشيع لهم، ولم يسعه إلا أن ينقل ما كتبه المتقدمون فى إنكار نسبتهم.

وما الذى يحملنا على الشك مثلاً فيما كتبه رجال أمثال: القاضى الباقلانى، وعبد القاهر البغدادى وابن شداد وابن خلكان والنويرى وابن حجر وابن حزم؟

ويلاحظ أن النظرية الغالبة فى التواريخ المصرية، هى الريب فى نسب الفاطميين، والمؤرخون المصريون هم بمصريتهم وقربهم من العصر الفاطمى، وكونهم أقدر من غيرهم على تحرى مصادر العصر الفاطمى وتراثه، هم أصحاب الرواية الراجحة، والقول المفضل فى تلك المسألة الجدلية.

ومن ثم فإنا على ضوء هذه الروايات التاريخية كلها، نشعر بالميل إلى الأخذ برواية المنكرين، ولا نجد فى تدليل المؤيدين وشروحهم ما يلقى ضوءاً كافيًا أو مقنعًا. ا.هـ.

يختم فيقول:

وكيف يطلب إلينا أن نعدل عن الإصغاء إلى تلك الروايات

التاريخية، المعقولة الراجحة، لنصغى إلى أقوال طائفة من الدعاة الإسماعيلية المتأخرين من رواة القرن التاسع والعاشر الهجريين، وقد كتب معظمهم فى الهند واليمن بعيداً - زمانًا ومكانًا - عن موطن المصادر والوثائق، واتسمت رواياتهم بطابع الإغراق والأسطورة، فضلاً عن النزعة المذهبية الخاصة؟

وأولئك هم عماد البحوث المستفيضة التى يحاول بها الأستاذ إيفانوف أن يؤيد نسب الفاطميين لآل البيت، وأن يدحض أقوال المنكرين، وقصة القدّاح ا. هـ.

أيام الظاهر لإعزاز دين الله

ولم تكن أيام الظاهر بأحسن حالاً من أيام أبيه الحاكم. ففى السنة الثالثة من أيام حكمه سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ٤١٣ هـ، جرت كائنة غريبة عظيمة ومصيبة عامة، على حد قول ابن كثير فى البداية والنهاية(١).

وهى أن رجلاً من المصريين، من أصحاب الحاكم اتفق مع جماعة من الحجاج المصريين على أمر سوء، وذلك أنه لما كان يوم النفر الأول، طاف هذا الرجل بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر الأسود، جاء ليقبله فضربه بدبوس كان معه ثلاث ضربات متوالية، وقال:

إلى متى نعبد هذا الحجر؟ ولا محمد ولا على يمنعنى مما أفعله، فإنى أهدم اليوم هذا البيت . . !

وجعل يرتعد، فاتقاه أكثر الحاضرين وتأخروا عنه، وذلك لأنه كان رجلاً جسيمًا أحمر اللون أشقر الشعر.

وعلى باب الجامع جماعة من الفرسان وقوف، ليمنعوه ممن يريد منعه من هذا الفعل، وأراده بسوء؛ فتقدم إليه رجل من أهل اليمن معه خنجر(٢) فوجأه به، وتكاثر الناس عليه فقتلوه، وقطعوه

---

(١) ج: ١٢، ص: ١٧.

(٢) ويعرف عند أهل اليمن بالجنبية. ووجأه: طعنه فى عنقه.

قطعًا، وحرقوه بالنار، وتتبعوا أصحابه فقتلوا منهم جماعة، ونهبت أهل مكة الركب المصرى، وتعدى النهب إلى غيرهم، وجرت خبطة عظيمة، وفتنة كبيرة جداً، ثم سكن الحال بعد أن تتبع أولئك النفر، الذين تمالئوا على الإلحاد فى أشرف البلاد، غير أنه قد سقط من الحجر ثلاث فلق مثل الأظفار، وبدا ما تحتها أسمر يضرب إلى صفرة، محببًا مثل الخشخاش؛ فأخذ بنو شيبة[١] تلك الفلق فعجنوها بالمسك واللك، وحشوا بها تلك الشقوق التى بدت، فاستمسك الحجر، واستمر على ما هو عليه الآن، وهو ظاهر لمن تأمله ا. هـ.

(١) سدنة الكعبة.

وبعد الظاهر ولده المستنصر

وتولى بعد الظاهر العبيدى ولده المستنصر، وكان عمره سبع سنين، واسمه معد وكنيته أبو تميم؛ فتكفل بأعباء الحكم بين يدى المستنصر الأفضل أمير الجيوش واسمه: بدر الدين بن عبد الله الجمالى.

ويدعى إسماعيلية آغاخان أن إمامهم من ذرية المستنصر من ولده نزار. أما طائفة البهرة من الإسماعيلية فيقولون إن إمامهم من نسل المستعلى أخى المستنصر.

يقول الأستاذ الخطيب عليه رحمة الله:

ومن المفارقات العجيبة أن تتعلق فرق الإسماعيلية بهذين الأخوين حتى الآن، مع أنهما كانا عدوين، حتى إن المستعلى أحمد بنى جداراً ودفن وراءه أخاه نزاراً وهو حى، حتى مات خنقًا وجوعًا ا.هـ.

وسبب هذه العداوة أن المستنصر كان قد عهد بالأمر إلى ولده نزار من بعده، فلما مات المستنصر خلع أمير الجيوش الجمالى نزاراً، وأمر الناس فبايعوا أحمد، ولقبه بالمستعلى. فهرب نزار إلى الإسكندرية، وجمع الناس عليه، فبايعوه، وتولى أمره قاضى الإسكندرية جلال الدولة بن عمّار، فقصده الجمالى وحاصره؛ ثم

أسر نزاراً والقاضى فقتل القاضى، وحبس نزاراً كما قدمنا بين حيطين[١] حتى مات.

وفى أيام المستنصر هذا انتشر إلحاد الإسماعيلية فى اليمن، وكان ذلك على يد أحد دعاتهم واسمه على بن محمد الصليحى.

ويحدثنا ابن كثير عن الصليحى هذا فيقول:

أبو الحسن على بن محمد بن على الملقب بالصليحى؛ كان أبوه قاضيًا باليمن، وكان سنيا؛ ونشأ فتعلم العلم[٢]، وبرع فى أشياء كثيرة من العلوم، وكان شيعيًا على مذهب القرامطة، ثم كان يدل بالحجيج مدة خمس عشرة سنة، وكان اشتهر أمره بين الناس أنه سيملك اليمن.

فنجم ببلاد اليمن بعد قتله نجاح صاحب تهامة، واستحوذ على بلاد اليمن بكمالها فى أقصر مدة، واستوثق له الملك بها سنة خمس وخمسين وأربعمائة وخطب للمستنصر العبيدى صاحب مصر؛ فلما كان فى هذا العام ٤٧٣ هـ خرج إلى الحج فى ألفى فارس فاعترضه سعيد بن نجاح بالموسم فى نفر يسير، فقاتلهم،

---

(١) تلك هى عبارة ابن كثير فى البداية والنهاية ج: ١٢، ص ١٨٣.

(٢) الذى أفسد عقيدته وهو صغير، رجل اسمه عامر بن عبد الله الرواحى.

فقتل هو وأخوه، واستحوذ سعيد بن نجاح على مملكته وحواصله.

ومن شعر الصليحى هذا، قوله:

أنكحت بيض الهند سمر رماحهم
فرؤوسهم عرض النثار يثار
وكذا العلا لا يستباح نكاحها
إلا بحيث تطلق الأعمار

كشف أسرار الباطنية

هو عنوان كتاب ألفه أحد علماء اليمن، واسمه محمد بن مالك ابن أبى الفضائل الحمادى اليمنى. وسبب ذلك أن هذا العالم الفاضل اندس بين أتباع الصليحى وأوهمهم أنه صار منهم، لأن الباطنيين عمومًا حريصون على كتمان إلحادهم، إلا على الذين يستوثقون منهم، فلا يكشفون أسرارهم فى معتقدهم بسهولة ويسر لكل الناس.

وما زال الحمادى يتقرب ويغوص، حتى اكتشف باطنهم وقارنه بظاهرهم، وألف الكتاب الذى ذكرنا[1]، وهو من الكتب القيمة المعتمدة فى بابه، موضوعًا ومنهجًا.

---

(١) طبع فى مصر سنة ١٣٥٧هـ.

بدء الانحسار

وتوالت الأحداث، وكلها تشير إلى بدء زوال الحكم العبيدى الباطنى وانحسار سلطانهم، مع انكشاف زيفهم وبطلان ادعائهم، إذ قام أمير المغرب المعز بن باديس بإزالة ذكر طغاة العبيديين عن منابر المسلمين فى القيروان وغيرها، فطهرها الله من ذلك، مع أنها كانت فيما سبق ومضى مرتكز دعوتهم ومنطلق هجمتهم، وقاعدة ملكهم وتسلطهم.

وفى أيام المستنصر برز محضر من ديوان الخليفة العباسى القائم بأمر الله بالقدح فى نسب العبيديين، وأنهم ديصانية خارجون عن الإسلام، وكان ذلك فى عام أربع وأربعين وأربعمائة ٤٤٤هـ؛ وهو شبيه بما سبقه فى أيام القادر الخليفة العباسى سنة اثنتين وأربعمائة (٤٠٢هـ)؛ وعليه خطوط القضاة والأشراف[١].

ويقول ابن كثير[٢] عن ذلك:

فيها أى فى سنة ٤٤٤هـ، كتبت مذكرة الخلفاء المصريين، وأنهم أدعياء كذبة، لا نسب لهم صحيح إلى رسول الله ﷺ نسخًا كثيرة، وكتب فيها الفقهاء والقضاة والأشراف ا. هـ.

---

(١) النجوم الزاهرة ٥ - ٥٣ لأبى المحاسن بن تغرى بردى.

(٢) البداية والنهاية ج: ١٢، ص: ٨٠.

من المستنصر إلى المستعلى وابنه الآمر

وتولى بعد المستنصر ابنه المستعلى ذاك الذى بنى على أخيه نزار الجدار، ودفنه حيًا حتى مات.

فى ذلك الحين كانت هجمة الصليبيين على بيت المقدس، فانتزعوها من سلطان العبيديين، وقتلوا فيها ما يزيد على سبعين ألفًا، كما استولوا على كثير من بلاد الساحل الشامى.

وتولى بعد المستعلى ابنه الآمر، وكان عند ولايته فى الخامسة من عمره، لا يعقل شيئًا. يقول ابن خلكان فى الوفيات:

ولما اشتد وفطن لنفسه، قتل وزير أبيه الأفضل بن أمير الجيوش واستوزر محمد بن فاتك البطائحى فاستولى هذا الوزير عليه، وقبح سمعته وأساء سيرته، ولما كثر ذلك منه، قبض عليه واستصفى أمواله وقتله، وصلبه بظاهر القاهرة، وقتل معه خمسة من إخوته.

ويحدثنا ابن خلكان عن الآمر فيقول:

وكان الآمر سيئ الرأى، جائر السيرة، مستهترًا، متظاهرًا باللهو واللعب. وفى أيامه أخذ الفرنج عكا وطرابلس الشام وعرقة وبانياس وصور وبيروت وصيدا؛ ووصل بردويل الفرنجى إلى الفرما [١] من الديار المصرية، وأحرقها، وأحرق جامعها

(١) الفرما على الشاطىء الشرقى لبورسعيد.

ومساجدها، ورحل عنها وهو مريض، فهلك فى الطريق قبل وصوله إلى العريش.

أما الآمر العبيدى فكانت عاقبته أن قتله بعض المصريين على الجسر القائم بين الفسطاط وجزيرة الروضة.

قال القاضى ابن خلكان:

وكان قبيح السيرة، ظالمًا للناس، يأخذ أموالهم، ويسفك دماءهم، وارتكب المحظورات واستحسن القبائح، فابتهج الناس بقتله. ا.هـ.

الحافظ عبد المجيد

وانتقل ملك العبيديين من الآمر إلى ابن عمته الحافظ عبد المجيد . . . كيف؟

سبب هذا التحول أن أحمد بن الأفضل أمير الجيوش كان محبوساً فى حبس الآمر، منذ أن قتل الآمر وزير أبيه الأفضل.

فلما تولى الحافظ هجم الجند على السجن وأخرجوا أحمد بن الأفضل، وولوه الوزارة، فكان أول أعماله أن رفض إمامة الأسرة العبيدية.

يقول ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة[١]:

ثم أهمل خلفاء بنى عبيد والدعاء لهم، فإنه كان سنيا كأبيه ا. هـ.

ولما كان من الصعوبة بمكان أن يعيد ابن الأفضل الدولة إلى ما كانت عليه قبل تولى العبيديين فى عقيدتها ومذهبها، لكثرة أنصار العبيديين، وعلى الخصوص تولى المناصب الكبيرة والمؤثرة فى مجريات الأمور، ونظام الدولة العام، رأى أن يعالج الموقف بحالة وسطى، يتخلص بها من سلالة العبيديين أولاً.

---

(١) ج: ٥ ص: ٢٣٩.

فأظهر مذهب الاثنى عشرية[١]، وأعلن أن الإمام هو المهدى المنتظر محمد بن الحسن العسكرى الغائب فى السرداب بسر من رأى (سامراء) فى العراق؛ وأمر بأن يدعى له على المنابر، وكتب اسمه على السكة العملة.

ولم يكن الإسماعيليون ودعاتهم وأصحاب النفوذ والمناصب ليسكتوا على ذلك وينصاعوا، فتربصوا مع تواطؤ من الحافظ لأحمد بن الأفضل، وجردوا له مملوكًا إفرنجيًا من مماليكهم، فوثب عليه فقتله.

وكان ذلك فى البستان الكبير، فى ظاهر القاهرة، لدى خروج الوزير إلى التريض؛ وتم ذلك فى العشرين من المحرم سنة ست وعشرين وخمسمائة ٥٢٦ هـ.

وبادر جند العبيديين وأنصارهم بإخراج الحافظ عبد المجيد العبيدى وبايعوه، وأعادوا الدعاء له على المنابر، بدلاً من المهدى المنتظر.

يقول ابن كثير فى البداية والنهاية[٢]:

وفيها، أى فى سنة ٥٢٦هـ قتل أبو على بن الأفضل بن بدر الجمالى وزير الحافظ الفاطمى، فنقل الحافظ الأموال التى كان

---

(١) الجعفرية والإمامية.

(٢) ج: ١٢، ص: ٢٥٢.

أخذها إلى داره، واستوزر بعده أبا الفتح يانس الحافظى، ولقبه أمير الجيوش ا. هـ.

وفى أيام الحافظ تآمر عليه ابنه حسن، وكاتب الأمراء وكاتبوه، ثم خافوا فأفشوا سره لأبيه، وسكت عنه أبوه، فخافوا أى الأمراء أن يفتك الابن بهم، فتجمعوا وطلبوا من الحافظ تسليم ولده إليهم ليقتلوه، ولما أبى الحافظ هددوه بالخلع، وأحضروا الحطب والنيران لتحريق القصر، ورأى الحافظ أن يخرج من الورطة بأن يقتل ابنه بالسم، واستعان على ذلك بطبيبه اليهودى ابن قرفة.

وبعد موت ابن الحافظ بالسم وتثبت الأمراء من ذلك بطعنه طعنات متعددة، انتقم الحافظ من طبيبه اليهودى ابن قرفة فرماه فى خزانة البنود، وصادر أملاكه وموجوده.

وفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ٥٤٣هـ، مات الحافظ عبد المجيد العبيدى، وخلفه أصغر أبنائه إسماعيل، وتلقب بالظافر؛ وكان عمره آنذاك سبع عشرة سنة وبضعة أشهر.

ويصف لنا السبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان أيام الظافر فيقول:

وكانت أيامه مضطربة لحداثة سنة، واشتغاله باللهو؛ وكان ينادم ابن وزيره عباس الصنهاجى ويعاشره، ويبيت فى دار الغلام

فى السيوفية متخفيًا، ويسكر عنده؛ فكثر لغط الناس فى ذلك، فأمر الوزير ابنه أن يقتل الظافر العبيدى إذا بات عنده ليدحض عن نفسه مقالة السوء، فقام ابن الوزير بالمهمة وقتل إمامه العبيدى وألقاه فى بئر.

قال سبط ابن الجوزى:

فأخذ عباس الوزير وابنه ما قدرا عليه من المال والجواهر وهربا إلى الشام؛ فبلغ الفرنج ذلك من كتابة وردت إليهم من أخت الظافر[١]، ووعدتهم بمال جزيل إذا خرجوا عليه وأخذوه، فخرجوا إليه بالقرب من عسقلان[٢] وغزة، وقتلوا الوزير وأسروا ابنه، ثم قتل الابن فى السنة التالية ا.هـ.

وقال ابن خلكان:

وكان قتل الإمام العبيدى الظافر فى سلخ المحرم سنة تسعة وأربعين وخمسمائة ٥٤٩ هـ؛ وكان من أحسن الناس وجهًا. ا.هـ.

---

(١) إن العشرين سنة الأخيرة من الحكم العبيدى لمصر كانت غاية فى السوء والاضطراب، وكان التعاون مع الفرنجة آخذًا مداه.

(٢) أحد ثغور فلسطين فى الجنوب.

الفائز

وتولى بعده ابنه عيسى الذى تلقب بالفائز؛ وكان فى الخامسة من عمره. ولم يطل به العمر، إذ توفى بعد ست سنوات وبضعة أشهر من ولايته؛ وقد بلغ إحدى عشرة سنة؛ وكان وزيره آنذاك طلائع بن زريك الملقب بالملك الصالح.

العاضد

وتولى بعـد الفـائز ابن عم لأبيـه هو عـبـد الله بن يوسف بن الحافظ، ولقب بالعاضد.

يقول الأستاذ الخطيب عليه رحمة الله:

وفى زمنه عضد الله شجرة هذا البيت.

وكـان وزير دولته شـاور، وفى زمنه اسـتعـان العـبيـديون على المسلمين بالصليبيين غير مرة؛ وفى زمنه أى زمن العاضد. كان حريق الفسطاط، وكان الله أرحم بمصر وأعدل فى خلقه من أن يملى للعبيديين بأكثر مما أملى لهم، وقبل أن يزيلهم من الوجود تدارك كنانته برجال يخلقهم الله لإنقاذ هذا الدين وأهله على فترة من الزمـان، فكان ذلك ولله الحـمـد والمنة على أيدى الملك المـجـاهد نور الدين مـحـمـود زنكى ورجل دولتـه أسـد الدين شيركوه؛ وابن أخيه السلطان، الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب ا. هـ.

أسد الدين وصلاح الدين فى مصر

فى السنة الثالثة من ولاية العاضد ـ العبيدى. وكان ذلك سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ٥٥٨ هـ؛ كان يتنازع السلطة فى مصر ثلاثة من رجال دولة العبيديين هم: شاور السعدى وضرغام والعادل بن رزيك.

ولقد استطاع شاور أن يستبد بالأمر دون خصميه اللدودين فترة من الزمن، ومن ثم خرج عليه ضرغام وجمع له جموعًا كثيرة، واستطاع أن يدمره ويهزمه، فهرب شاور إلى الشام؛ مستنجدًا بالملك نور الدين زنكى.

وكانت لنور الدين ـ عليه رحمة الله ـ خطة سياسية بعيدة المدى ترمى إلى استنقاذ مصر من أيدى ملوكها العبيديين، الذين أفسدوا على الناس عقيدتهم وعبادتهم، وسلوكهم؛ وتواطؤهم مع الفرنجة الصليبيين على المسلمين.

فلما استنجده شاور، وافقه على طلبه، وهو يعلم أن شاور لا يستحق النجدة، إلا أن مصر الكنانة تستحق التحرير؛ واشترط عليه أن يكون له ـ أى لنور الدين ـ ثلث خراج مصر بعد إقطاعات العساكر؛ وأن يكون أسد الدين شيركوه حامية بجنوده فى مصر، وله التصرف المطلق فى أمور البلد وفق أوامر نور الدين.

وعليه فقد أصدر نور الدين أمره إلى القائد أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين أن يتوجها إلى مصر، على رأس جيش كثيف، وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى سنة تسعة وخمسين وخمسائة ٥٥٩ هـ.

وحين اقترب وصول جيش أسد الدين إلى مصر خرج له ضرغام بعساكر العبيديين، والتقيا فى بلبيس، فكتب الله تعالى النصر لأسد الدين، وانهزم ضرغام، وتراجع إلى القاهرة.

وفيها أعاد تنظيم قواته، وصمم مجدداً على القتال، والدفاع عنها، ووقعت عدة معارك بين الطرفين بأرض الطبالة والمقس[١]، وكانت الغلبة لجيش أسد الدين الذى استولى على الفسطاط والقاهرة، وعسكر بباب اللوق، وانتهى الأمر بمقتل ضرغام؛ وكان ذلك أواخر جمادى الآخرة سنة تسعة وخمسين وخمسمائة ٥٥٩هـ.

(١) باب الحديد ميدان رمسيس الآن.

خيانة شاور

وقدم أسد الدين شاور ليتولى الوزارة حسب الاتفاق مع نور الدين، وما كاد هذا اللعين يتولى أمور الدولة من جديد، حتى عاودته طباعه وما نشأ عليه من الفساد والإفساد، فجنح إلى الخيانة، وتنكر لعهده مع الملك نور الدين، ومنع الغلال والأرزاق عن جيش أسد الدين، بقصد الإجاعة والإضعاف، وإجباره على الرحيل عن أرض مصر.

فأرسل أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين إلى بلبيس ليجمع له الغلال، وغيرها من الأموال للإنفاق على الجيش.

وقام شاور بحشد قوات قاتل بها جيش أسد الدين، فوقعت عدة وقائع احترق فيها وجه الخليج خارج القاهرة بأسره، كما احترقت قطعة من حارة زويلة.

ولم يكتف شاور بما فعل من نكث العهد والخيانة، بل بعث رسلاً إلى عسقلان يستنجد بالصليبيين على أسد الدين وصلاح الدين، فأتاه الملك الصليبى آمورى بجموعه.

واضطر أسد الدين إلى الانسحاب إلى بلبيس والتحصن بها، وليمنع الصليبيين من دخول مصر؛ وهناك اتحدت قوات شاور مع قوات آمورى، وحاصروا أسد الدين وجيشه فى بلبيس مدة ثلاثة أشهر؛ وكانت بلبيس حصينة ذات أسوار.

وعمد الملك المجاهد نور الدين زنكى رحمه الله إلى الإغارة على عدد من نواحى فلسطين وبلادها، التى كان يحتلها الصليبيون، لتخفيف الضغط على أسد الدين ومن معه.

وقد تم له ذلك، إذ اضطر آمورى إلى فك الحصار عن بلبيس والعودة إلى فلسطين؛ وانسحب أسد الدين ومن معه سالمين غانمين، عادوا إلى الشام؛ وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة تسعة وخمسين وخمسمائة ٥٥٩ هـ.

ولكن ...

ولكن هل يترك الملك المجاهدُ نور الدين إمامَ العبيديين العاضد، ووزيره شاور الخائن من غير تأديب، على ما فعلوه من الاستنجاد بالصليبيين . . ؟ أبدًا . .

ففى خلال سنتى ستين وواحد وستين وخمسمائة، أخذ نور الدين يتأهب ويتم استعداده لتأديب العاضد وشاور؛ وفى منتصف شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وخمسمائة (٥٦٢هـ)؛ خرج من دمشق، جيش جديد بقيادة أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين فى الطريق إلى مصر.

وتجنب القائد المحنك أسد الدين فى طريقه البلاد المحتلة من الصليبيين، واختار طريق الرمل شرقى الأردن؛ وفى السادس من ربيع الآخر وصل إلى أطفيح، وعبر منها إلى الجانب الغربى من النيل، وعسكر بجنده فى الجيزة بمحاذاة الفسطاط، وأقام هناك نيفًا وخمسين يومًا.

فى خلالها استنجد العاضد وشاور بالصليبيين واستدعياهم إلى مصر، ورتبا لهم سوقًا بالقاهرة وانتشرت قوات الصليبيين ما بين محافظتى الشرقية والغربية، وسار إليهم أسد الدين بقواته، والتقوا فى موضع يسمى البانين.

ونشبت المعركة بين جيش أسد الدين وجيش الإفرنج الصليبيين

وحلفائهم العبيديين، وكتب الله النصر لجيش أسد الدين، وقتلوا من الصليبين والعبيديين ألوفًا؛ ووقع بيد أسد الدين، سبعون بارونًا[1] من فرسان الصليبيين.

ورأى أسد الدين أن يتوجه بعد هذا الانتصار نحو الإسكندرية التى استقبله أهلها بالتأييد والمساعدة لا سيما بعد أن خان العبيديون الله والدين باستدعاء الصليبيين مرتين.

وأراد أهل الإسكندرية أن يحصنوا ثغرهم، وأن يقنعوا أسد الدين بالبقاء عندهم، والانضواء بقواته إليهم، ومحاربة من يقصدهم من الصليبيين والعبيديين لكن القائد الناصح، الخبير بالمعارك والحروب قال لهم: أنا لا يمكننى أن أحصر نفسى. وترك ابنَ أخيه صلاح الدين فيها مع حامية.

ثم خرج بقواته نحو الصعيد، فأحسن أهلها استقباله، فمهدها وجبى خراجها.

وسار شاور والصليبيون نحو الإسكندرية وحاصروها مدة أربعة أشهر، وصدق أهل الإسكندرية القتال مع صلاح الدين وثبتوا، وأسرع أسد الدين لنجدتهم وقد انضمت إليه قوات من الصعيد، وقبل أن يبلغها وقد أحس المحاصرون بقدومه، خافوا اللقاء معه، ففكوا الحصار وانسحبوا.

---

(١) البارون: لقب شرف عند الفرنجة.

وأخذ شاور اللعين الخائن، يعمل على الدسيسة فى جنود أسد الدين، وقد أغرى طائفة التركمان منهم بالذهب، فمالوا إليه، ورأى أسد الدين بحنكته وحكمته أن يستجيب لطلب العبيديين بالهدنة، وقبلها منهم، بشرط أن يدفعوا له مقابل ذلك خمسين ألف دينار، فوافقوا، وذلك مقابل ما غرمه فى حملته؛ وعاد إلى دمشق، فوصلها فى الثامن عشر ١٨ من ذى القعدة سنة اثنتين وستين وخمسمائة ٥٦٢ هـ.

حريق الفسطاط ٥٦٤ هـ

يعتبر حريق الفسطاط سنة أربع وستين وخمسمائة (٥٦٤ هـ)؛ من أعظم الفواجع التى ألمت بمصر فى العهد العبيدى؛ وكأنهم ما رضوا أن يزلزلوا عقيدة أهل السنة والجماعة فى نفوس الناس بنحلتهم وبدعتهم الإسماعيلية، وما علق بها من شرك، فأضافوا إليها محاولة محو كل أثر ظاهر ينبئ عن ذلك، وطمس معالمه تحت أنقاض النيران والهدم.

وبيان ذلك أن شاور اللعين الخائن، عندما بلغة نبأ قدوم جيش الصليبيين إلى مصر بقيادة آمورى غازيًا، وقد مر ببلبيس استولى عليها، وفعل فى أهلها الأفاعيل.ويصف لنا مؤرخ صليبى كان مرافقًا للحملة ما حدث من فظائع، إذ يقول:

دخل رجالنا إلى المدينة شاهرين سيوفهم، وبدأوا فى قتل كل من يلاقونه، سواء كانوا رجالاً أو نساءً، عجائز أو شبابًا، دون مراعاة لأحد منهم، وحين كانوا يجدون عذارى أو عجائز كامنين داخل الغرف كانوا يقتلونهم بحد السيف، ولا يحافظون إلا على أولئك الذين قد يحصلون من ورائهم على فدية كبيرة، وأخيرًا حدث دمار رهيب وسلب مفزع.

وقد أرسل آمورى إلى شاور رسالة مهينة، بعد أن أسر ولده، قال فيها:

يتساءل ابنك فيما إذا كنت أظن بأن بلبيس قطعة من الجبن يمكنني التهامها؟ نعم، في الواقع إن بلبيس هي قطعة الجبن، والقاهرة قطعة الزبد اللتين أود التهامهما.

إذاً . . . كان آموري يقصد القاهرة في زحفه وليس الفسطاط . . !

عندما علم شاور بذلك نادى بمصر (الفسطاط) أن لا يقيم بها أحد[١]، وأزعج الناس في النقلة منها، فتركوا أموالهم وأثقالهم، ونجوا بأنفسهم وأولادهم، وقد هاج الناس واضطربوا، كأنما خرجوا من قبورهم إلى الحشر، لا يعبأ والد بولده، ولا يلتفت أخ إلى أخيه، وبلغ كراء الدابة من مصر (الفسطاط) إلى القاهرة بضعة عشر ديناراً، وكراء الجمل ثلاثين ديناراً، ونزلوا بالقاهرة في المساجد والحمامات والأزقة وعلى الطرقات فصاروا مطروحين بعيالهم وأولادهم وقد سلبوا سائر أموالهم، وبعث شاور بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار، فرق ذلك فيها، فارتفع لهب النار ودخان الحريق في السماء، فصار منظرا مهولاً، فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر الفسطاط من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يومًا، ومن حينئذ خربت مصر الفسطاط هذا الخراب ا . هـ.

---

(١) المقريزي ج: ١، ص: ٣٣٨، ٣٣٩.

يقول القلقشندى[١]:

ولم يزل الفسطاط زاهى البنيان، باهى السكان، إلى أن كانت دولة الفاطميين العبيديين، بالديار المصرية وعمرت القاهرة، فتقهقر حاله وتناقص، وأخذ الناس فى الانتقال عنه إلى القاهرة وما حولها، فخلا من أكثر سكانه، وتتابع الخراب فى بنيانه، إلى أن غلب الفرنج على أطراف الديار المصرية، فى أواخر حكم العبيديين، فأضرم شاور السعدى فيه النار، فأتت على مساكنها وأحرقتها، فتزايد الخراب فيه وكثر الخلو ا. هـ.

ويقول الأستاذ الخطيب عليه رحمة الله:

وقد تبين لشاور والعبيديين من هذه الحوادث[٢] أن استمرار الحكم العبيدى فى مصر قرابة مائتى سنة لم يضعف سلطان عقيدة أهل السنة والجماعة على المصريين، وأن الفسطاط على الخصوص، وكذلك الإسكندرية وبلاد الصعيد، كلها صادقة الميل نحو أسد الدين وصلاح الدين وما يمثلانه من العقيدة الإسلامية السليمة.

وكان ظاهرًا لهم أن دولتهم أشرفت على الزوال، فقرر دعاتهم أن ينتقموا لهزيمتهم بإحراق الفسطاط مدينة الذكريات الإسلامية

(١) ج: ٣، ص: ٣٣٧-٣٣٨.
(٢) يعنى التفاف أهل مصر حول أسد الدين.

ليزيلوها من الوجود، وليبيدوا ما فيها من ملايين المصنفات الإسلامية المخطوطة، التى كانت تزداد وتنمو فى أكثر من خمسمائة سنة.

وكما أغرقت فى دجلة ثروة الإسلام العلمية بخيانة ابن العلقمى الرافضى ومستشاره العلمى ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة، كذلك أحرقت ثروة الإسلام العلمية فى الفسطاط بخيانة شاور ومستشاريه من دعاة العبيديين، زاعمين لأهل الفسطاط عندما أمروهم بالخروج السريع من بيوتهم ليحرقوا البلد أنهم مضطرون إلى إحراقها خوفًا عليها من استيلاء الفرنج! مع أنهم كانوا حلفاء الفرنج، وهم الذين كانوا يستدعونهم المرة بعد المرة، والفرنج لا تهمهم الفسطاط بقدر ما كانت تهمهم القاهرة[1].

وكان المعقول أن يحرق العبيديون القاهرة لا الفسطاط! ولكن الفسطاط كانت تمثل تراث أصحاب رسول الله ﷺ الأئمة المقتدين بهم، والقاهرة كانت تمثل إسماعيلية العبيديين، والدعاة الملتفين حولهم.

ولهذا - وحده - أحرقت الفسطاط فى سنة ٥٦٤ هـ حريقًا مكتسحًا جارفًا؛ التهم الأخضر واليابس، وابتلع ألوف الشوارع، وما يتفرع منها من دروب وأزقة وحارات، وما يقوم بينها من

(١) ذلك واضح تمامًا فى رسالة آمورى إلى شاور التى ذكرناها من قبل.

عشرات المساجد وعشرات ألوف المكتبات الحافلة بأنفس المخطوطات فى العلوم الإسلامية، وقد أعجلوا الناس عن نقل شيء من مدخرات هذه المدينةالإسلامية التى حفلت بتراث نحو ستة قرون، كان يتوارث فيها الأبناء عن آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم كل ما تعتز به الأمة الإسلاميةمن مصاحف وكتب ومبان أثرية وزخارف يضن الزمان بمثلها.

ولو أن زلزالاً عنيفًا وقع فى الفسطاط بدلاً من النار لبقيت هذه المدخرات تحت الردم، ولأمكن للباحثين فيما بعد أن يستخرجوها، لكنه حريق، وأى حريق! استمر أربعة وخمسين يومًا بلياليها.

وإن مصر لا تزال كلما ذكر الفسطاط وحريقه، يتجدد بها الأسى والحزن، وهى إلى هذه الساعة تبكى على ما أهمل المسلمون فى مصر العتيقة من أمجادها وذكرياتها ا. هـ.

العبيديون والجامع الأزهر الشريف

من أهم، بل من أعظم ما أنجز فى عهد العبيديين من آثار، بناء الجامع الأزهر، فى القاهرة المعزية، لينافس جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط، أول مساجد مصر الإسلامية وأقدمها على الإطلاق.

ولقد بدئ بإنشائه بعد شهور قلائل من اختطاط القاهرة المعزية، وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ٣٥٩ هـ؛ اختطه جوهر الصقلى.

وسمى بالأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء رضى الله عنها، رابعة بنات النبى ﷺ من خديجة بنت خويلد أولى أمهات المؤمنين رضى الله عنهن أجمعين.

وكان الغرض من هذه التسمية والنسبة التأكيد على دعوى نسب العبيديين إلى الدوحة النبوية الشريفة، وبأنهم فاطميون.. !

كما كان الغرض من إنشائه أن يكون رمزًا لهذه الدعوة والدعوى، وفى نفس الوقت منبراً للإمامة الجديدة بمفهومها المذهبى، وقد أدى غرضه فى هذا الصدد فترة حكم العبيديين وفى تأثير ضعيف وضيق.

ومما يؤثر أن الحاكم بأمر الله قد أجرى فى أيام حكمه عادة الإطعام لمن ينزل بالجامع أو يأتيه، طوال أشهر رجب وشعبان

ورمضان، ولقد كان مصدر الإنفاق على ذلك الشأن، وغيره من الأمور المادية المتعلقة بالجامع، مما أوقف عليه من أوقاف، وكانت كثيرة وفيرة، تغطى حاجاته وتزيد.

وللحاكم أيضًا مأثرة أخرى فى الجامع الأزهر، إذ جدّد فى بنائه، وزاد فى أوقافه؛ وخصص قسمًا كبيراً من ريعها على مجالس الدعاية المذهبية، وعين مشرفًا عليها هو قاضى القضاة.

وبقى الجامع الأزهر يؤدى مهمته المذهبية طوال عشرات السنين من حكم العبيديين وفى الحدود التى رسمت له، كحوزة علمية محدودة المنهج؛ ولم يأخذ دوره الرائد فى العالم الإسلامى قاطبة إلا بعد أن تحرر من أسره الضيق وإطاره المحدود، وانطلاقه من هذه البوتقة، فى العهد الأيوبى، ومن ثم فى عصر المماليك.

وبدأ الجامع الأزهر يستقطب العلماء الأعلام، وطلاب العلم، وبدأت السلطات المتعاقبة تهتم به وبشأنه العلمى اهتمامًا بالغًا؛ وأضحى رمزًا علميًا وموئلاً ثقافيًا، على أعلى المستويات، ومقصدًا للكثير من شيوخ العلم وطلابه فى شتى أقطار وأمصار العالم الإسلامى. وأضيف إلى اسمه: الجامع الأزهر صبغة الشريف؛ لعلو وشرف منزلته.

وتطور التدريس فيه، ولم يعد مقصوراً على مذهب معين، بل كان لكل مذهب من مذاهب أهل السنة الأربعة شيوخه ومدرسوه، وغصت جوانبه بطلاب العلم، والتفت حول أساطينه وأعمدته الحلقات.

وأنشئت الأروقة للطلاب القادمين، يقيمون فيها، وتجرى عليهم الجرايات؛ وهى المخصصات المالية من خلال أوقافه الكثيرة، فيتفرغون لطلب العلم، ولا يشغلهم شاغل العمل وحاجة الإنفاق.

وهكذا تكونت أقدم جامعة فى العالم، بمناهجها، ونظمها، وأقسامها، وفروعها، وبيوت الطلبة فيها.

ومن خلال العرض للواقع التاريخى للجامع الأزهر يبدو لنا جليًا أن مكانته العلمية الرائدة تجاوزت عصر الذين أنشأوه فى حدوده الضيقة المذهبية، إلى الآفاق الرحبة الواسعة.

ويكفى القول أن يعرف العالم نفسه بأنه أزهرى فى شتى الديار، ليكون موضع إكبار وإجلال واحترام.

الخاتمة

وبعد . .

فلقد أتينا من خلال سرد الواقع التاريخى، ومن بطون كتبه المعتمدة، ومن صميم أقوال الدعاة الباطنيين أيًا كانت مسمياتهم، ما يدحض زيف الخديعة الكبرى التى استحوزت طوال قرنين من الزمان على العقول والقلوب والأنفس، وسيطرت على مساحة زمانية ومكانية ليست باليسيرة.

ومما يلفت النظر، ويستدعى التأمل والتدبر أن العداوة لهذا الدين الحنيف قائمة دائمة، لا تفتر زمنًا حتى تثور أزمانًا.

وهذا شأن الصراع بين الحق والباطل، بين النور والظلمة . . !

إن أول دم أريق فى الإسلام ظلمًا وعدوانا، وهجمة على رموزه، واستباحة لمقدساته، كانت على يد مجوسى، إذ قتل أبو لؤلوة الفاروقَ رضى الله عنه.

وإن من أثار الناس على عثمان رضى الله عنه هو ابن السوداء، عبد الله بن سبأ اليهودى. لقد أثار الناس فى الشام، فكانت المواجهة بين أبى ذر وعثمان رضى الله عنهما، ثم انتقل هذا اللعين إلى مصر، فاستجاب له نفر كثيرون، ومن ثم

كانت الفتنة الكبرى فقتل عثمان ظلمًا وبهتانًا، وهو يتلو كتاب الله تعالى.

واتسع الخرق. . .

فتزيد المتزيدون، ونفخ فى النار الدساسون والمنافقون.

فما من سلطان إلا وله معارضون، وما من جبهة معارضة إلا وتكون مرتعًا لذوى الأغراض والأهواء.

ويجعلون من بعد الدين مطية ومركبًا، ويقولون على الله غير الحق، ويفترون. . .، وما أن يطل منتصف القرن الثانى للهجرة حتى يظهر ابن السوداء من جديد فى شخص أبى الخطاب.

ومن بعده يظهر القداح، وخليفته عبيد الله المهدى وسلالته العبيديون فى مظهر زمنى وروحى، لا يمتان إلى الإسلام المصفى والدين الحق بأية صلة.

ولا يغرنَّك تقلب الذين كفروا فى البلاد.

لقد كان للعبيديين سلطان وحكم، وبذخ وترف، ومراسم وأبهة، وقصور ومراتع، وملاعب وحدائق وبساتين عليها يظهرون، ولكن ماذا قدموا للإسلام؛ لله والرسول، وللأمة؟

كيف واجهوا هجمات الصليبيين وماذا ارتضوا لأنفسهم؟

ماذا خلفوا من نهضة علمية، فى مختلف المجالات؟

لقد تواطأوا مع الحكام الصليبيين احتفاظًا بنفوذهم على مصر،

وبعض قطاعات من الديار الشامية، وبذلوا المال فى سبيل استرضاء هؤلاء؛ ولم يمنعهم حياء من دين أو مسكة من شهامة أن يستنجدوا بالصليبيين على إخوانهم - وليسوا بإخوانهم - فالكفر ملة واحدة.

إن مصر الفاطمية قليلة البضاعة فى العلم والتراث، كثيرة الآثار فى المبانى الحجرية، ولو قارنا ما تركه الأيوبيون والمماليك من بعدهم من دور علمية ومدارس فكرية، لتبين لنا الفرق الهائل الشاسع بين هؤلاء وهؤلاء، والواقع التاريخى خير شاهد على ذلك.

فضلاً عن تطهير البلاد من رجس الصليبيين، واقتلاعهم من ديار الإسلام، ومجاهدتهم على مدى عشرات السنين.

أضف إلى ذلك صد الزحف المغولى، وياله من جهاد..!!

فأين العبيديون من كل ذلك؟!

لقد كانوا ومن تبعهم من بعدهم ممن شايعهم على ضلالهم عونًا على سقوط بغداد، تلك السقطة الشنيعة المريعة، وابن العلقمى وخيانته واضحة كل الوضوح! لا لبس فيها ولا تجهيل ولا تضليل.

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واكتبنا فى زمرة الجماعة، ولا تجعلنا فتنة للذين آمنوا.

والحمد لله رب العالمين

ثبت المراجع

١ـ مجلة الأزهر . . . غرة جمادى الأولى ١٣٧٣ هـ الجزء الخامس المجلد الخامس والعشرون محيى الدين الخطيب .

٢ـ العبقريات . . . عباس محمود العقاد .

٣ـ الإصابة فى تمييز الصحابة .

٤ـ المرتضى . . . دار القلم ـ دمشق .

٥ـ الإكليل .

٦ـ البداية والنهاية .

٧ـ غاية المواليد .

٨ـ كتاب أصول الإسماعيلية . . . برنارد لويس ـ عبد العزيز الدورى .

٩ـ دعائم الإسلام .

١٠ـ الإمام جعفر الصادق . . . محمد أبو زهرة .

١١ـ فرق الشيعة . . . النوبختى

١٢ـ تنقيح المقال . . . المامقانى

١٣ـ آثار البلاد وأخبار العباد . . . المقريزى

١٤ـ الفسطاط . . . محمد عزب .

١٥ـ أحسن التقاسيم . . . المقدسى

١٦ـ المسالك والممالك . . . الإصطخرى .

١٧ـ حسن المحاضرة . . . السيوطى .

١٨ـ الحاكم بأمر الله . . . محمد عبد الله عنان .

١٩ـ مرآة الزمان . . . سبط بن الجوزى .

٢٠ـ النجوم الزاهرة . . . ابن تغرى بردى .

٢١ـ صبح الأعشى . . . القلقشندى .

الفهرست

الموضوع	الصفحة